

يوم آخر في الجحيم - امانى اسكندراني - بيل... >

3

يوم آخر في الجحيم

رواية

د. أمانى اسكندراني

بيلونسا
بيلونسا للنشر والتوزيع
BILLONSA PUBLISERS

بيلونسا



➤ يوم آخر في الجحيم - أماني اسكندراني - بيل...

يوم آخر في الجحيم

لا يجوز نشر هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو نسخ مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو بطريقة إلكترونية أو بالتصوير أو ترجمته إلى أية لغة أخرى دون الحصول على موافقة الناشر والمؤلف مقدماً.

All Rights Reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted, in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without the prior written permission of Bibliomania Ltd.

بيلومانيا



- ❖ الكتاب: يوم آخر في الجحيم
- ❖ المؤلف: د. أماني اسكندراني
- ❖ الطبعة الأولى 1444 هـ - 2022 م - القاهرة
- ❖ الناشر: بيلومانيا للنشر والتوزيع - مصر
- ❖ رقم الإيداع: 2022 / 26451
- ❖ الترخيم الدولي ISBN: 978 - 994 - 4581 - 978
- ❖ الرقم الكودي في بيلومانيا: b100401479
- ❖ مدير عام: جمال سليمان - مدير تنفيذي: محمد جلال
- ❖ العنوان: عنوان (1): 15 شارع السياق - مول المريبلاند - مصر الجديدة
- ❖ عنوان (2): 29 شارع الكمال - الأميرية - القاهرة
- ❖ تليفاكس: 002026064518 - 002026337855
- ❖ محمول: 00201210826415 - 00201030504636 - 00201208868826
- ❖ صفحة الدار على موقع فيسبوك: <https://www.facebook.com/bibliomania.eg/>
- ❖ الموقع الإلكتروني: www.bibliomaniapublishing.com

كل ما ورد في هذا الكتاب من أخبار وأحداث وآراء يعبر فقط عن رأي الكاتب، ولا يعبر بالضرورة عن رأي الناشر، ودون أدنى مسؤولية على دار بيلومانيا للنشر والتوزيع

[/bibliomania.eg](https://www.facebook.com/bibliomania.eg/)

جميع الحقوق محفوظة



> يوم آخر في الجحيم - امانى اسكندراني - بيل...

بيلونيا

بيلومانيا للنشر والتوزيع
BIBLIOMANIA PUBLISHINGS

www.bibliomaniapublishing.com

2022

جميع الحقوق محفوظة ©

.....يوم آخر في الجحيم

مقدمة:

لكل منا روايته، يخط عليها ما شاء وما يشاء ، منا من يسلم روايته



رواية بعنوان:
يوم آخر في الجحيم

الكاتبة: أماني احمد اسكندراني

إهداء:

إلى من كنتم سبباً في ألمي

إلى من تقرؤون أنفسكم بين طيات كتابي

إلى من جعلتم الحزن زادي والألم موطني

إليكم أهدي عذابي هذا ... ليسكنكم العذاب

الأبدي

مقدمة:

لكل منّا روايته، يخط عليها ما شاء وما يشاء ، منّا من يسلم روايته متكاملة وبديعة، ومنّا من يسلمها مليئة بالأخطاء، ومنّا من يسلمها فارغة لم يشأ له القدر أن يخط عليها أي كلمة.

لكن مع هذا سنحاسب بدورنا على هذه الرواية وعلى ما جاء فيها من خير ومن شر، نعلم أنّ هناك نسخة أخرى من روايتنا كتبت قبل أن نستلمها، كتبت بشكلٍ مفصل وواضح لا لبث فيها ولا لأحد القدرة أن يمحي منها أو يغيرها.

وبهذا وجب علي إخباركم بما جاء بروايتي إلى يومي هذا، رغبة في توضيح بعض الأمور، بل ربما رغبة في نسف عادات وأفكار وجذور غرست وما ازلت تغرس بأذهاننا، لأرمي بها بعيداً، ولأجعلكم تتعذبون بها مثلما تعذبت أو تعيشون برضا كما لم أفعل يوماً ، وهذا ما يحزنني..

لم أعرف معنى الرضا يوماً من الأيام، عانيت واحترقت واشتعلت النيران بداخلي، ويكأنّ حجرة غرست بقلبي منذ ولادتي لتحرقني كل يوم يمر دون أن أستطيع اطفاءها أو محوها من حياتي.

وها أنا اليوم أترخ قصة عائلة عاصرت آلام الجميع وأحزانهم وأوجاعهم، عائلة من الطبقة السفلى.

وهكذا بدأت قصتي.....

صرخة حياة طفولة غريبة

"نَكُونُ صِغَاراً ، فَتَنَمَّيْ أَنْ نَكْبُرَ
فَإِذَا كُنَّا تَمَنِّينَا أَنْ نَعُودَ أَطْفَالاً صِغَاراً."

مصطفى صادق الرافعي

كان يوماً حاراً من أيام أغسطس، يوماً شهد صرختين في آنٍ واحد،
صرخة فرح وصرخة ألم وحزن، صرخة استقبال وصرخة وداع.

ولدت وأطلقت نداء الحياة، وأصوات الخوف والألم والفرح والحزن
ممزوجة معاً كأنها صوت واحد يصدر من فم طفل حديث الولادة.

صادفت ولادتي وفاة لأحد جيراننا في الحي، وكانَّ القدر يمحي شخص
ليحيي به شخص آخر، فما من وفاة إلا ورافقتها ولادة في مكان ما،
ليتحقق التوازن على هذه الأرض.

أتيت على هذه الدنيا سليمة معافاة، صحيحة الوزن، لا أعاني عيباً
ظاهرياً، لكن لا أحد يعلم بالعيب الداخلي المستتر الخفي، فهل أنا
الوحيدة التي جاء معها هذا العيب؟ أم أنَّ كل طفل يُولد مزود به كزودة
ينهل منها بقية حياته؟

كنت طفلة ذات شعر رأس كثيف، سُمِّيت أمينة، أمينة التقوى،
سيلازمك هذا الاسم حتى الممات، ليشاركك فرحك وصرخاتك
وتأوهاتك.

لم أكن طفلة هادئة، بل هائجة مليئة بالغضب، بالصراخ، بالبكاء.

كنت طفلة لا ترحم أمها، لا في نومها ولا في يقظتها، تبكي طوال الوقت دون أن يعلم من حولها ما بها، لم تحب حليب أمها يوماً، ورفضت ثديي والدتها رفضاً مطلقاً لتعاقبها على ذنب لا تعلمه أمها ولا حتى هي نفسها، لذا كان لابدّ من حليب اصطناعي كبديل لتتغذى به الطفلة.

كانت أمينة الطفلة الوسطى، سبق قدومها طفلتين وتلى قدومها طفل آخر، ترعرعت في منزل متواضع أبسط ما يقال عنه أنه مكان بلا مأوى، فجدرانه قد شاخت وتآكلت، أو ربما صنعت هكذا مهترئة، مليئة بالتقوب والحجارة والفقر .

كل حجر فيه يقول لن أستمر لليوم التالي، سأفزع وسأجعلكم تسقطون معي دفعة واحدة، لكنّ هذا ما لم يحدث إلا بعد فترة طويلة من الزمن وبفعل فاعل.

للمنزل غرفتين وفسحة كبيرة وسطح، غرفة ينام بها الجميع الوالدان والأطفال الأربعة، ينامون متراصين وكأنهم وجبة طعام، ولم تكتفِ هذه الغرفة المتواضعة أن تكون منامة لتصبح غرفة طعام وغرفة استقبال وغرفة لتبديل الملابس.

في الصباح تتم إزالة الفرش الموزعة على الأرض لتوضع تحت سرير كبير. يحتل مكاناً وحيزاً كبيراً في الغرفة، لتصبح غرفة لائقة باستقبال الزوار، واستقبال نهار جديد بكل ما يحمله من فرح وألم.

إلا أن ما يميزه هو فسحته التي تحوي شجرة كبيرة تطل بظلالها عليه، لتحميه من الرياح وما تحمله من غبار وأوساخ، تدعى شجرة نانرنج،

رائحتها مميزة وشهية لدرجة أنّ أي حبلى تمر أمام المنزل وتشم رائحتها تتوقف وتدق الباب رغبة في الحصول على زهرة منها أو ثمرة ناضجة أو ورقة طازجة، فكل ما فيها ينضح بالفائدة والدفع والحياة.

وهذه الشجرة تمسك بشجرة أخرى تسمى " الدالية" أو " ورق العنب"

تتحدان معاً لحماية هذا البيت ومن فيه ولمنحهم شيئاً ربما يعوض عليهم ما قد حرّموا منه أو ليشعروا بتميزهم وبأهمية منزلهم.

وأكثر ما يبهج هذا المنزل ويزيده رونقاً، هو الأزهار والورود المتعددة البراقة والبهية الألوان، ورائحتها العطرة وشكلها الباعث للسعادة، وياسمينته البيضاء البديعة بأزهارها الرقيقة وأنوثتها الطاغية، بالإضافة إلى نبتة غريبة بشكلها فلا هي ذات رائحة ولا لون تسمى " راخي شعره " وربما يطلقون عليها هذا الوصف لأنّ أغصانها تتدلى منها للأسفل كشعر الإنسان، كما تسمى أيضاً بنبات العنكبوت لكثرة أغصانها الصغيرة التي تتدلى منها لتشكل عناكب متعددة متفرعة عنها، رغم أنها ليست جميلة إلا أنها تساعد في تنقية الهواء خاصة في الأماكن المغلقة، إلا أنّ هذه العائلة قد وضعت هذه النبتة في كل مكان من المنزل لتحتل أجزاءً كبيرة من فسحته، حيث تصطف الواحدة تلو الأخرى على جدران هذا المنزل في أقاصيص صغيرة معلقة بمسامير ثابتة على ارتفاع متر من الأرض تقريباً، فإمّا أنّ صاحب المنزل يحبها لدرجة شديدة أو أنّه يخفي بها بشاعة المنظر.

أمّا الغرفة الأخرى من المنزل فقد كانت لضيفة أخرى، ضيفة خفية سكنتها.

لا تخرج منها أبداً، تشعر بعيونها تراقب من في المنزل وتتابعهم أينما

ذهبوا من نافذة غرفتها الصغيرة المظلة على فسحة المنزل، غرفة هادئة للغاية.

كثيراً ما تساءلنا هل هناك حقاً ضيفة في هذه الغرفة، هل يسكنها أنس أم جن ؟ ، لكن مع الأيام تعايشنا معها وتعلمنا عدم الاقتراب من هذه الغرفة لأي سبب كان.

كان منزلنا جنة بالنسبة لنا نحن الصغار بكل ما فيه من شجر ومن أحواض زينة ومساحات خضراء، أشبعنا فيه فضولنا وأفرغنا فيه طاقاتنا.

كنت طفلة متألمة، أعشق الشمس المتساقطة عبر أغصان الشجر والخيوط الذهبية الهوائية المتشكلة منها والتي تملؤ البيت بهجة وألوان زاهية براقية.

أعشق الرياح ومداعتها لشجرة النانرج وكأثها صديقتها جاءت تلقي عليها بالتحية، فتميل الشجرة لترد عليها تحيتها بإصدار أصواتٍ ناعمة رقيقة من أغصانها الخضراء الطويلة الحانية.

أعشق الأرض الصلبة القاسية التي تشققت قدمي من خشونتها لتطبعني بصفتها وتجعلني شبيهتها.

أعشق التصدعات في أرجاء المنزل، والتي كثيراً ما قمنا بحفرها أكثر لنكتشف ما هو مخبأ فيها.

لم نكن العائلة الوحيدة التي سكنت هذا المنزل، فقد شاركنا فيه عوائل كثر، النمل والفئران والجرذان والصراصير والناموس والذباب والزنابير والنحل والعصافير والحمام والسحالي، هذه العوائل التي

شاهدتها وعاشت طفولتي.

وربما كان هناك عوائل أخرى لم أرها لكنني شعرت بها، عوائل ليس لها اسم أو وصف أو رمز، تشعر بهالتها فقط محيطة بك.

كل عائلة اتخذت لنفسها موطناً في هذا المنزل دون أن تستأذن من أصحابه، أحياناً أشعر بأنها سكنت قبلنا ونحن لم نستأذنها للبقاء معها.

لا أعلم إلى اليوم كيف عشنا معاً أو كيف تعاشنا، لكن الضرورة هي التي قد فرضت علينا الاعتياد، فمع الوقت قد تعتاد ما تعده كابوسك الأسوأ على الإطلاق، مأساتك الكبرى، التي لم تتخيل يوماً أنك قد تتقبلها ولو لبعض الوقت، فالوقت كفيل بكل شيء.....

نستيقظ كل صباح على زقزقة العصافير، رغم أنها تسمى زقزقة ورغم أن الآخرين يرونها جميلة، إلا أنني أعتبرها صراخاً وزمجرة وشتيمة، تصدر إمّا عن صغير جائع في العش يعترض على عجزه ويأسف على وضعه، وينادي بغضب والدته، وآخر يرغب في شريكة ترفضه، أو يبحث عن مكان أو شق في منزلنا فلا يجده، فيبدأ بالنواح واطلاق الشتائم على صاحب هذا البيت الذي لم يدع هذا الشق أو الفجوة أوسع قليلاً ليتمكن من اتخاذها موطناً له، وهكذا كل يوم، زوار جدد وعائلات جدد.

كنت أفضل أصوات الحمام وهديرها الذي يملأ الكون بأناشيد التضرع لله.

حتى وهي تبحث عن مأوى أو عن شريك أو تسعى للقامة عيش، فهي مثال الحنان والحب والرقّة ومثال الخشية من الله، كنت أراقبها لساعات طويلة وأستمع بغنائها وحركاتها، وكان أخي يستمتع مثلي بمراقبتها.

كان يصغرنى بسنة واحدة ويدعى "سامي"، كان رفيق مغامراتي ورفيق تأملاتي.

شعره بني غامق أميل إلى لون التراب، ذو بشرة بيضاء وعينين بنيتين، ووجهه بشوش وطيب، ويشبه والدتي كثيراً بأنفه الحادة وذقنه المدورة وعينه الواسعتين الكحيلتين.

كنا كثيراً ما نراقب الحمام معاً وهي تأكل وهي تنظر إلينا وتنادي رفيقتها، وكنت أحسدها على مرونة رأسها وقدرتها على تحريكه في جميع الجهات، وكذلك أحسد حاستها السادسة، وقدرتها على معرفة من عدوها ومن محبها وأليفها.

وبذلك لم يخلو بيتنا من عش للحمام، تأتي عائلة وتذهب أخرى وكأنها تورث عشها كما نورث نحن البشر أملاكنا ومنازلنا.

فحين رحيل الكبار من العش بعد أن شاخوا وهرموا، تأتي الفتية الصغار لتحتل العش من جديد.

لتحيي به ذكريات وتفاصيل طفولتها فيه، ثم تجده وتعيد تأسيس ما تلف منه ليبدأ دورة حياة جديدة....

يقع العش على حجر ناتئ من زاوية جدار المنزل على ارتفاع ثلاث أو أربعة أمتار من الأرض، تحت غطاء أو شادر كبير يغطي نصف سماء فسحتنا المنزلية، معلق بحبال مشدودة على أطراف الجدران.

كنا وأنا وأخي نراقبها من الأسفل دون أن نستطيع الوصول إليها، نراها تحمل خشبة تارة وتارة أخرى طعاماً، وكثيراً ما كان الطعام فحماً مؤلفاً من حشرة ضخمة يرقانة أو دودة، وأحياناً لقمة صغيرة كذبابة أو

نحلة.

إلى الآن وأنا أذكر كيف تبني الحمامة عشها بصبر وهدوء وتحمل، فرغم الحرارة الشديدة ورغم تقلبات الطقس لا تتوقف يوماً ولا تستسلم. تستيقظ قبل شروق الشمس لتبدأ سعيها عن أعواد قاسية وأخرى طرية، تصف الأعواد اليابسة في الأسفل لتشكل منها قاعدة متينة وتجعلها تتشابك مع بعضها بأخرى لينة، وتظل تقوم بهذا العمل لتصنع علواً جيداً عن الأرض لتقي بذلك جسدها وجسد صغارها من البرد ومن الحر، وتتم عملها بجعل العش مقعراً من الداخل لتتعم صغارها بالراحة وهم داخل البيوض قبل أن يقرروا الخروج ورؤية الحياة.

أكثر ما يمكن أن تضعه الحمام من بيوض هو اثنين فقط، وهذا ما كان يدعشني دائماً، فهل تعلم بتنظيم النسل بشكلٍ فطري؟ أم لديها غريزة تعلمها أنّ تربية الأطفال تحتاج لجهد ووقت؟

رغم أنّها تكرر هذه الدورة مرات عديدة خلال العام، إلا أنّها في كل دورة لا تضع سوى اثنين فقط.

لم تكن مراقبة الحمام لعيتي الوحيدة، بل كنت أنا وأخي نخلق العديد من الأشياء والألعاب بعقلنا الطفولي.

فأحياناً كنّا نعبث بحوض منزلنا ونحفر فيه أخاديد عميقة رغبة في اكتشاف ما يخبئونه لنا، فأبي طفل قد يتصور أنّ الكبار لا يدّ وقد اتخذوا من هذا الحوض صندوقاً لأسرارهم يملؤونها بما يستترون به ويرغبون في إبقاؤه بعيداً عن الأعين من مجوهرات أو أوراق أو أشياء أخرى.

وفي كل مرة نحفر فيها، لم نكن نتوقف لولا صراخ والدنا أو والدتنا لنخرج من الحوض حتى لا نتسخ أو نتسخ ملابسنا.

ففسارح لفعل وابنكار لعبة أحرى حتى نمل منها ونبدأ ن فكر في لعبة جديدة وهكذا كل يوم.

وهذا يؤكد أنه لا يمكن للصغير أن يستمر في لعبة واحدة لفترة طويلة، فسرعان ما يتشتت ذهنه ويلفت انتباهه شيء آخر، أو سرعان ما يمل ممّا بين يديه ويشعر بعدم أهميته، ربما لأنه قد اكتشفه وعينه عن قرب فلم يعد يثيره أو يشبع فضوله.

وهكذا كانت أيامنا تتوالى في منزلنا المتواضع ، نستيقظ صباحاً لنملئ بطوننا الصغيرة بطعام فيه من الحب أكثر ما فيه من العناصر الغذائية، ثم نبدأ باللعب والقفز في فسحة المنزل، ثم حفر الحوض واكتشافه من جديد ليتم استبعادنا ونهينا عنه بشدة في كل مرة، ثم الصعود لسطح الدار.

وأحياناً كنّا نعبث بتشققات الأرض لتشتيت أسراب النمل التي تتخذ طريقها للعودة محملة بفريسة، أو يائسة من عبثية المحاولة والبحث وعدم جدواها.

فننشغل بها وهي تسير بانتظام لنرميها بالماء أو حفنة من تراب، أو نضع أغصان صغيرة لنعيق طريقها، أو قد نأخذ منها فريستها في حال نجاح بحثها، وهذا كان عمل شيطاني، فكم كلفها الامساك بالفريسة وحملها والعودة بها ساعات وساعات.

أو يثير انتباهنا معركة شديدة الوطيس بين سرب نملٍ أحمر، وسرب نملٍ أسود، فلكل سرب منزل ولكل منزل حدود، فإن تخطى أيٌّ من السربين الحدود وجب الدفاع والهجوم، وكما في معارك البشر قتلى و جراح، كذلك النمل، فلا تنتهي معركة إلا وقد حصدت الكثير من

الأرواح وخلفت وراءها العديد من الجرحى، ولكن هذه الجثث لا تترك على الأرض كما في معارك البشر بل تصبح فريسة ووجبة دسمة للسرب الفانز.

لم أكن أحب يوماً تجمع النمل، حيث كان يشعروني بالتمزز، أعلم أنّ وجوده ضروري لأنه جزء من نظام كوني وفقدانه سيسبب خللاً في دورة الحياة، انطلاقاً من أنّ كل ما في هذا الكون قد خلق لسبب، لكن مع هذا أشعر وكأنهم قد استعمروا منزلنا فأخذوا يعبثون به دون مراعاة لمشاعرنا.

وبذلك كنّا سبعة أفراد نتقاسم حلو الحياة ومرها في هذا المنزل، والدان وثلاثة فتيات وفتى صغير وضيعة خفية تحتل الغرفة الثانية.

هذه العائلة عاشت في حي سكني فقير، بيوته متراسة ومتعاقبة تخشى على نفسها السقوط، فتساند بعضها البعض، جدرانها من طين وحجارة وملينة بالشقوق، أرضها من رمل منكسر، أثاثها من أشياء قديمة عافى عليها الزمن ومخلفات لأناس آخرين قد رموها واستغنوا عنها.

أمّا شوارعه فهي ضيقة تكفي لشخص واحد أو ربما شخصين ليسيرا معاً، لا زرع ولا شجر.

بل ... أكياس مكدسة فوق بعضها تراها مرمية هنا وهناك حول حاويات القمامة وفي كل مكان، تزين الطريق بمنظرها وبأحشائها التي تتأثرت منها ورائحتها العفنة.

حينما تزور هذا الحي صباحاً لا تستطيع سماع نفسك من شدة الأصوات المتأتية من كل مكان، من مشاحنات داخل البيوت، ومن ألفاظ سوقية يتقاذفها الأطفال فيما بينهم، ومن صراخ وسب وشتم

وضرب بالأيدي والأرجل تجده بين الرجال.

وفي المساء تمدُّ يدك فلا تراها من شدة الظلام، فلا أضواء تنير الطريق ولا كهرباء، إمّا أنّها مقطوعة أو أنّ أحدهم قد فجر خزان الكهرباء لا لشيء فقط للتسلية.

أمّا نحنا فكنا كأي أسرة عادية هكذا كنت أظنّ وقتها، تسكن في منزلها ومنطقتها بأمان وهدوء، لديها بعض المشاكل الداخلية وبعض المشاحنات والخلافات فيما بينها، وازدادت هذه المشكلات بعد اكتشافني لحقيقة مرة قلبت حياتي رأساً على عقب، ففي يومٍ من الأيام وحينما بلغتُ من العمر خمس سنوات تُوفي جدي "والد والدتي"، أذكر بكاء والدتي وحزنها حينما أُخبرت أنّ والدها قد رحل، ولهفتها للذهاب لبيت جدتي، كانت منفعلة جداً وحزينة، أذكر أنني كنت أبكي أيضاً، فالأطفال تصيبهم عدوى المشاعر، يفرحون حين يرون من حولهم سعادة ويحزنون لحزنهم ويخافون لخوفهم، فالأطفال هم مرآة حقيقية لتعلم من خلالها حال أصحاب الدار.

لم ألمس مشاعر الجدودية مع جدي ولم أخبرها، فجدي "والد أبي" رحل قبل ولادة والدي بزمان كبير، وجدي الآخر لا أذكر عنه شيئاً، فشخصيته كانت صارمة وحازمة وشديدة، وكان الأطفال يهابونه ولا تسمع لهم صوتاً فيح بالإضافة إلى أنني كنت الحفيدة رقم اثنا عشر، وهذا يعني أنّه حتى اسمي لم يكن ليخطر على بال جدي أبداً.

فاتفق والدي مع والدتي أن تسبقه لبيت جدتي بينما هو يجهز الصغار ويلحق بها، هنا رفضت البقاء مع أبي وتعلقت بقدم والدتي وزاد صراخي في كل مرة كانت أمي تدفعني بها بعيداً عنها، إلى أن قالت لي

الأم: "يا ليت أمنية هي من بقيت معي لا أنت، كم كنت أتمنى اخفأوك بدلاً منها".

فابتعدت عنها مصعوقة من الدهشة، محتارة ممّا سمعت، إلا أن حملني والدي وأخذني بعيداً عنها، وانطلقت هي مسرعة من المنزل، لم أفهم ما قالت والدتي، فاستعجلت والدي بالجواب وتوسلت إليه لأفهم مغزى كلامها، لكنّه لم يوضح لي شيئاً بل ارتبك وتوتر وقال أشياء غير مفهومة أو مترابطة:

الأب: "أمك حزينة ووالدها توفى ومن الطبيعي أن تختلط لديها الكلمات".

مرّ هذا اليوم ومرّ معه أجواء الحزن والعزاء وصور خالاتي ووالدتي وهم يودعون والدهم بدموعهم وقلوبهم، وعدنا إلى المنزل مشبعين بلقطات من السواد والبكاء والألم والصراخ، وحين وصولنا طلب منا والدينا أن نلعب في فسحة المنزل ريثما تأخذ والدتي استراحة بسيطة، فانطلق أخوتي سعداء بعودتهم للمنزل، لكنني التصقت بباب الغرفة حينما سمعت اسمي يلفظ من فم والدتي "أمينة".

شرع والدي يقول لها: "لم يكن عليك أن تقولي مثل هذا الكلام لأمينة فهي صغيرة ولا ذنب لها".

الأم: "هي من كانت السبب في ضياع أمنية، لقد لحقت بها وقتها". علمت وقتها ممّا استطعت فهمه أنّ لي أختاً أخرى غير أختي

صرخت في نفس اللحظة التي صرخت بها صرخة الميلاد، وأتّها
شاركتني اعلان الوصول وشاركتني الجسد نفسه والرحم نفسه
والمشيمة ذاتها، وأنها بكت معي وضحكت معي ، وأنّ لها اسماً هو
أمنية، الاسمان قريبان وبعيدان في نفس الوقت، أمينة وأمنية،
قريبان شكلاً وبعيدان مضموناً.

ولم أفهم القصة كاملة إلا بعد مرور أعوام وأعوام، والقصة كانت:
ولدت أنا وشقيقتي التوأم معاً في نفس اليوم وفي نفس الساعة، في
يوم حار صيفي شديد اللمب من أيام أغسطس في الخامس والعشرين
من أغسطس في الساعة السابعة صباحاً، لكننا لم نبق معاً فرقنا
القدر وباعد بيننا، وربما بات لأمنية الآن رواية مختلفة تماماً عن
روايتي، فهي لا تذكر عني شيئاً الآن، أبقانا القدر معاً لمدة سنتين،
لنأتي لحظة الفراق في يوم مشؤوم حزين في حزيران ، يوم غائم
تكسوه الغيوم، وتصاحبه زخات من الأمطار، كنت وقتها في الثانية
من عمري، خرجنا في نزهة على القطار مع والدتي وأختي
وخالاتي، ثم اضطرت والدتي للنزول من القطار لشراء بعض
الحاجيات وأوصتنا بالبقاء في القطار وعدم النزول منه لأي سبب،
لكن أمنية لم تطع والدتنا، فقد كانت أكثرنا التصاقاً بها، فبكت
واستمرت في البكاء والعيول أمام الباب وهي تضرب عليه إلى أن
أشفق عليها جابيا وفتح لها الباب فخرجت وخرجت معها، إلا أن
الزحمة كانت شديدة والركاب كثيرون يصعدون وينزلون ، فلم أعد
أرى أمنية والى الآن لم أرها لقد ضاعت وضاع وجوها بين مئات
بل آلاف من الوجوه، لتنتهي رحلتها معي ولتستمر في مكان آخر أو
ربما لتتوقف نهائياً وتصعد إلى السماء، ولكنني أريت أمي فركضت
عليها، فتلقيت التوبيخ والتأنيب من أمي لعدم إطاعتي لها، وحين
عدنا لأختي لم تجد أمنية، فظنت أنني أنا من أصررت على النزول

لا أمنية، فأمنية دائماً مطيعة لوالدتي ولا تخالفها أبداً، وبهذا ظنت
أمي أنني السبب في ضياع أختي التوأم.

باختفاء أمنية، تلاشيت وتضاءلت، لم أعد أعتبر كياناً، فقد اختفت
الجميلة ذات البشرة البيضاء والوجه المدور والعينين الملونتين
والشعر الأشقر الطويل، ولم يبق سوى ذات البشرة السمراء
والعينين البنيتين والفم الصغير، وذات الشفاه الرقيقة والوجه
الأسمر ذو الذقن الحادة النافرة، والشعر البني.

كانت المقارنة بيننا ظالمة، فقد كُنا متعاكستين تماماً لا نشبه بعضنا أبداً، وفي عائلتنا مقياس الجمال هو أهم المقاييس في العالم، ربما ليس فقط في عائلتنا بل في أرجاء العالم، فالجمال مقياس ثابت تجده أينما ذهبت في الصين، في الهند، في الفلبين، أو في أوروبا، فبالتالي هذا المقياس سيحتل الجزء الأكبر في بلدنا كبلدنا سوريا، لا يقارن بالبلدان السابقة ذات الحضارة والعلم والثقافة، لكن في مجتمعنا المحلي يؤخذ الجمال ويحدد بامتلاك الفتاة لسمات معينة كال بشرة البيضاء الناصعة والوجه المدور، والجسد الممتلئ، والصدر البارز، والمؤخرة الممتلئة، ففي بلدنا نركز مقارنة بالبلدان الأخرى على مناطق الغريزة، المناطق التي تشعرونا بالشهوة والنشوة والعرشة، وتجعلنا نحتلم صغاراً كُنا أم كباراً، رجالاً أم نساء.

صحيح وقتها لم أعلم ما اقترفت من ذنب لتشوه صورتني لذي والديّ، ومن حولي، فقد كنت صغيرة جداً ولا أذكر شقيقتي التوأم على الإطلاق، لا أذكر سندي وظلي، وصورتني المنعكسة في المرأة، التي طالما تمنيتها وسعيت إليها واشتهيتها، جل ما خطر ببالي أنّ أمي لم تعد تحبني كما كانت، أو ربما كانت تهتم بي لأنني فقط توأم أمنية، وكراماً لها كانت تضي عليّ بعضاً من حنانها، أمّا باختفاء أمنية فلم أعد ذات نفع أو قيمة، بثّ مصدر حزنها وتعاستها، تنظر إليّ لتري في وجهي صورة أختي المعذبة الجائعة الضائعة، فيصيبها الأسى وتهوي كورقة شجرة خريفية برتقالية تمزقها رياح الألم وترمي بها بعيداً.

ولكي أمحو عني صفة النفي، أصبحت أكثر قرباً لأمي وأكثر تعلقاً، التصقتُ بها التصاقاً ربما لتغفر لي خطيئة لم ارتكبتها ولم أعلم بها ولا أذكرها، أو لأبعد عني شعور غير واعي يسيطر عليه الخوف والقلق من مصير مجهول ينتظرني كمصير أختي، فقد عانيت كثيراً باختفاء أمنية، أصبحت كثيرة البكاء، وكثيرة الخوف، الألق والدتي أينما تذهب كظلها، أسير وراءها كأثر تخلفه على رمل حارق، أتبعها حين تطبخ وحين تنظف وفي الحمّام وعلى السطح، أتعلق برقبته، وأجلس على حضنها وأدفن وجهي بجسدها وأنفي بصدرها لأشتم رائحتها، فيستكان خوفي، وتهدأ مشاعري المتوهجة، وحين تدفني عنها بعيداً أصرخ مستنجدة، لتعود وتحملني وتعانقني من جديد، ويزداد تعلقني بها في حال وجود الغرباء الذين هم أقرباء لنا، لكنهم في نظري غرباء قد يأخذوني بعيداً عن أمي. ومع مرور الوقت أصبحت أفضل، إلا أنّ هذه الحادثة تركت في نفسي أثراً لا يُمحي، وحين علمت أنّ لي أختاً توأماً دخلت غرفة والديّ مسرعة متفاجئة وغضبا من طريقة دخولي عليهما دون استئذان، وأخذت بالبكاء والعيويل، فحملني والدي وضممني إليه وأخبرني أنّنا نتحدث عن شيء آخر وأنّ ما فهمته كان خطأً، وبالطبع ينسى الطفل ما حدث ربما شعورياً لكن، في اللاشعور تبقى آثار هذه الحادثة عالقة لا تمحي بل وتصبغ الشخصية وتسيطر عليها دون وعي من الفرد، فتؤثر على قراراته وسلوكياته وطريقة حياته، ويصبح الفرد شخصاً

مختلفاً تماماً عما كانه قبل هذه الحادثة، ولو أنّ الفرد قد عالج هذه الحادثة بوقتها ولم يتركها، لمّا نمت آثارها واستفحلت.

منذ تلك اللحظة لم أعد أذكر لوالدي شيئاً عن أختي التوأم، فقد فهمت أن الأمر سرّاً ، ويتوجب عليّ وعليهما إخفاؤه، وما ساعد في التخفيف عني أخوتي ومشاركتهم لي في اللعب، خاصة أخي الصغير سامي، الذكر الوحيد على البنات، آخر العنقود.

ومنذ وفاة جدي، ووالدتي لا تكف عن ذكر محاسنه وصفاته وبطولاته.

وباتت أيام طفولتها هي الحاضرة معها وصديقتها وظلها في الصباح وفي المساء.

كانت والدتي بتذكرها لأدق التفاصيل عن حياة جدي، كأنها تحبب من جديد في قلبها وفي العالم الفاني.

ذاكرة عائلة

كان البيت يضج بالحياة، مليئاً بالأصوات والحركة، كخلية نحل
"لا تهدأ."
إيزابيل الليندي، بيت الأرواح

فقد كان جدي رجلاً مكافحاً يعمل النهار بطوله لتأمين لقمة العيش
الحلال، وجدتي تعمل معه في صنع الكراسي وتقوم بأعباء المنزل
بأكملها من غسيل الملابس وكويها وترتيبها وتنظيف الصحون،
والاعتناء بالمنزل والأطفال، إلى الطهي وإعداد وليمة كبيرة تكفي
تسعة عشر نفساً يقيمون في المنزل.

ترتيب والدتي بين أخوتها السادس وهي تقع في الوسط ضمن العائلة
فلا هي الكبيرة ولا هي الصغيرة، إلا أن عائلة والدتي تجمع ما بين
جيلين.

فالأخوة الأكبر عمراً حين بلغوا سن الرشد، كان الأخوة الأصغر ما
زالوا في مرحلة الطفولة المبكرة.

أسرة أمي مؤلفة من تسعة عشر طفلاً : ثمان فتيات، وتسعة فتيّة، وهم
من الأكبر سناً يوسف وعلي وخالد وعثمان ونديم وصباح وديبة
ودولت ووليد ومريم ورياض وأديبة وحنيفة ونوران ومحمد وأحمد
وأيمن.

وقد توفي لهذه العائلة ثمانية أطفال، يوسف وعلي ومحمد وأحمد وديبة

وأديبة ودولت و عثمان، محمد وأحمد وأديبة ودولت وعلي و عثمان
توفوا عند الولادة مباشرة.

أما الصغيرين يوسف وديبة فقد توفيا بعمر الزهور، الصبي " يوسف " توفي وهو في العاشرة من عمره وكان الطفل الأكبر في العائلة والمفضل لدى أبيه، حيث كان حنوناً ولطيفاً وشديد الذكاء وكل من رأى محياه أعجب بحسن طبعته وجمال حضوره وقدرته على الفصاحة.

إلا أنّ القدر خطفه من بين عائلته لتنتهي رسالته قبل أن تبدأ، أما الطفلة الأخرى فتدعى " ديبية" وهي تصغر يوسف بأربع سنوات فقط وكانت في السادسة من عمرها، نهمة وشديدة الشراهة ومرحة وكثيرة الضحك، فكانت فرحة العائلة، وكانت تشبه يوسف كثيراً في جمال وحسن طبعها بل ربما فاقته حسناً وبهاء، إلا أنّ الحمى أصابتها وجعلت جسدها الصغير الضعيف هزياً لا يقوى لا على الطعام ولا على الضحك، إلى أن انتهت مقاومتها للمرض وفارقت الحياة.

كانت صدمة العائلة كبيرة بوفاة الطفلين، حيث عانت جدتي فترة طويلة حتى استطاعت تجاوز هذه الصدمة والعودة للحياة من جديد، وربما وجود طفلها الكبير خالد قد خفف عنها كثيراً، فكان كمنحة أعطيت لها من السماء تعويضاً عن مصائبها .

هذه العائلة كانت تقطن غرفة كبيرة في منزلٍ ضخم مليء بالغرف وكانه فندق، تعود ملكيته لخال والدتي " أديب " ، وهو ذو شخصية جديّة وواثقة إلى حد الغرور.

لكنهم لم يلبثوا فيه سوى بضع سنوات حيث انتقلوا لمنزلهم الخاص الذي شهد معظم مغامرات أمي في طفولتها ومرافقتها، إلى أن تزوجت في الثالثة والثلاثين من عمرها وانتقلت لمنزل والدي.

كانت أمي مختلفة عن أخواتها، مرنة سلسة في التعامل وتستطيع اقناع الجميع بما تريد، أرادت تعلم مهنة الحياكة ولذلك قررت عدم متابعة دراستها، واستطاعت بفترة تقل عن ستة أشهر تعلم المهنة وأصبحت أشهر حائكة في المنطقة كلها.

لكنها بعد زواجها توقفت عن مزاولة المهنة بأمر من والدي الذي منعها من أن تخطط أو تحيك الملابس لأحد خارج عائلتنا الصغيرة، كان يعدها نوعاً من العار أن تصنع ملابس لغيرك وكأنك خادم لديهم.

أما أخواتها، فسأبدأ بالحديث عن رياض التي كانت تلقب بـ " كلاي " المصارع المشهور في تلك الفترة الزمنية.

لشدة سمنتها وعرض منكبيها وصدورها البارز، وهذا جعل منها مصدر سخرية لكل من يراها، فقررت الزواج بأول شخص خاطب لها، ولذا ما إن أصبحت في السادسة عشرة من عمرها حتى تزوجت بشخص يكبرها بعشرات السنين، هرباً من أخواتها ومن لقبها الذي أثار لديها مشاعر النقص،

لكنها لم تلبث أن طلبت الطلاق بعد سنة واحدة فقط، فلم تستطع الاستمرار في الحياة مع شخص يستعبد كإنها خادمة ويضربها كل ليلة .

لتعود من جديد لحضن العائلة المشوه، ولحديثهم الذي يزيد النقص في

النفس، ويرفع من الاكتئاب، ويدفع بهرمون التثاؤم للحدود القصوى.

فاخوها " نديم" كان الأكثر عطاءً في مدحها، فيصف فيها فمها الكبير وعينيها الصغيرتين وبدانتها وأنفها المدور، ولا يكتفي بالحديث فيشير بأصابعه الطويلة النظيفة للغاية والناعمة مشكلاً إشارات جميلة تدل على الصفات وتوضحها.

عادت رياض لمنزل عائلتها وهي مكسورة خاطر والجناح، وما إن أتمت عدة الطلاق حتى تقدم لخطبتها قريب للعائلة من طرف بعيد، كان رجلاً فقيراً، ولكنه يحب الطعام والحياة هكذا بدا لها، وفي نفس عمرها، لذا لم تتردد لحظة في الموافقة على الارتباط به، لتبدأ معه حياة غريبة وشاذة نوعاً ما.

فقد كان يحب ممارسة الحب معها يومياً بل أكثر من مرة في اليوم الواحد ويستخدم معها كل ما يجده أمامه من أدوات من عصا، أكرات صغيرة، لأدوات مطبخ، وغيرها ليثبغ نزواته الغريزية التي تسيطر على عقله وكامل حياته، فلم يراع حرمة ليوم مقدس ولم يراع زوجته ومشاعرها ولا حتى تأوهاتها وصرخاتها وتألّمها من ممارساته الغريبة.

وكان يرغب بها في كل الأوقات حتى وان كانت تنظف الأرضية أو تجلي الصحون أو تطهو الطعام، بل كانت هذه اللحظات بمثابة الحافز لغريزته ونشوته الغريبة.

وان رفضت يرغمها على ذلك ولا يدعها حتى يعطيها حفته ويسمع صرخاتها، مخلفاً وراءه أثراً وبقعاً على الأرض وعلى الجدران وفي كافة أرجاء المنزل، وقد نتج عن ممارستهما الشاذة طفلة غريبة، لم

يتسع لها الوقت لأتعرف عليها، ولم يسمح لي القدر بأن أراها، فقد توفت قبل ولادتي بأشهر.

أسموها "لينا"، وقد عاشت هذه الطفلة مع هذين الوالدين الغريبيين سبع سنوات، تمننت في كل لحظة من هذه السنين لو أنها لم تأت على هذه الدنيا، ولم تراهما ولم تنشأ في حضنهما، وربما حين غادرتهما كان رجاؤها ألا تلتقاهما في آخرتها لا سعادة ولا حزانى، أما قصتها فسأسردها على لسان لينا متخيلة حجم ما عانتها:

ولدت في يوم خريفي ربيعي، لا برد فيه ولا حر، مع نسمة عليلية ورطوبة جميلة، وزخات مطرٍ بديعة على جنبات الطريق، تطرق نوافذ وقراميد المنازل معلنةً قدومها.

في ليلة ذلك اليوم المشؤوم صرخت رياض صرخت يُدمى لها الفؤاد، واستمر صراخها الليلة بطولها، وكانت تساندها قابلة نسائية تدعى "أم سعيد".

تشدُّ من أزرها وتطمئنُّها وتقول لها:
"عيني ولدك يا رياض ... شارفت على الولادة."

ولدت ولم يفرح بي أحد، ولم أعني شيئاً لأحد حتى والداي، فكنتُ أشبه بذلك أي قطعة أثاث يشتريها الفرد لتلبية حاجاته أو لأنه من المفروض أن يحضرها فقط، فمن وجهة نظر الأب "محمود" زوج رياض، لا يُعترف برجولية الرجل حتى ينجب أطفالاً.

ورغم كل تحذيرات الأطباء لرياض بالألا تتجب في المنزل، إلا أن زوجها رفض نقلها للمشفى، وقال لها:

"إنّها خز عبّلات أطباء .. فقط ليجعلونا ندفع لهم المال."

كان رباطهما مقدساً تحت عيون الأشهاد وبمباركة جلييلة من المحبين والأقرباء، لكن بعد أن تمت المراسم وقلقت الأبواب والتصقت الأبدان واختلطت القطرات، واستخدمت كافة الأدوات من خشبٍ وحديدٍ وخيطانٍ ومطاط، ودخلت المياه وأغارت فندقاً داخلياً عميقاً، تكونتُ وأصبحت نزيلة رحم أمي..

وبمرور الشهور ظهرت الحقيقة وأسدل الستار، وأخبر الجميع بمن أكون، وكيف سأكون، وصبغت جبّهتي بعنوان حياتي وبطيفٍ توحدي. لم تكن هذه الحقيقة سوى صدمة لعقول صغيرة لا تفهم معنى الأمومة والأبوة، فاتفقا ذات ليلة أن يتم كل شيء سراً، وحين تأتي اللحظة الموعودة وينتهي كل شيء، يُقال للجميع لم تستطع القدوم، لم تكن سوية، وتشهد عليهما عيونهما الباكية الدامعة قسراً. ثم ترمى في مغارةٍ نائيةٍ وتترك ليفعل بها الزمن ما يشاء. لكن!، في تلك الليلة حدث ما لم يكن بالحسبان، فلم تعد المغارة ترغب بدمٍ آخر، فبعثت بمجهول ليكون ممحاةً للنسيان، فيجدد ذاكرة ويصحح الخطأ. وهكذا عادت مطأطأة الرأس تحمل بين ذراعيها عارها الصغير، فاستقبلت بالشتائم والضربات والعيويل والصراخ، وبعد ساعات وساعات من المشاحنات، تمّ الرضوخ وتقبل الأمر. كنتُ كمرضي كالطيف لا يراه أحد ولا يشعر به أحد، ألقى بي في إحدى زوايا غرفةٍ مهجورة، كخرقة بالية مهترئة وعديمة النفع، يرمى إليها بزجاجة ماء ملوث قدر من باب هذه الغرفة خوفاً من العدوى.

كنتُ أسمع صوتي فقط يرتدُّ عبر جدران قفصي، صوت الألم وصوت الجوع، وألمس برأسي ما حولي عليّ أنفذ من خلاله لأرى النور الذي افتقدته. كانت سمائي خشباً متفرقاً تعبت من بين ثقبه الفرن،

وأرضي باردة قاسية تعزف على أوتار جسدي فتمزقها إرباً إرباً. ومع أنني أكره التجديد والتغيير بطبعي، إلا أنني كرهتُ غرفتي الرتيبة المملة، بلونها الرمادي الباهت، وجوها الخانق المشبع بروائح القاذورات المتببسة على جسدي.

ومع الأيام اكتست غرفتي ثوبها الأصفر الجديد، يزداد مقاسه كل يوم، دون أن يلحظه أحد أو يزيه أحد.

بثُّ حبيسة خوفي وألمي وحزني وغرْبتي، ويكأنَّ الله عز وجل أرادني خليفةً للنبي أيوب عليه السلام، لأمثل أيقونةً للصبر والرضا. تتالت الشهور والسنين وأنا عجينة النسيان، لدرجة أنني لم أعد أتُعرف على جسدي، فقد اتخذ له قناعاً وحشياً مشوهاً، لم يكن صانعه مبدعاً بل فوضوياً، فلا اليديين في مكانهما ولا القدمين، ولم تعد العين تميز انسياً بل غولاً منسياً، يخرج منه ديدانٌ صغيرة اتخذت من جسده منزلاً ومسكناً لها.

الآن، حانت اللحظة يا أمي ويا أبتني، أشعر بنفسي أستطيع الكلام رغم قضبان الحديد التي غلفت فمي سنيماً وأياماً، لا أعرف ماذا أقول لكما هل أقول لماذا؟، أم أعاتبكما؟ أم أصرخ وأملأ الكون عويلاً؟ أم أصمت؟

يقولون أنني لا يمكنني الاستجابة حين مناداتي باسمي، هل حاولتما مناداتي؟ أم أنكما رميتما اسمي في قمامة مشاعركما؟ ومع هذا أحببته، أحببت اسمي، كان كالسحر حينما سمعته من فم شخصٍ صادقٍ في مشاعره نقيٍ من داخله، لينا.. الآن. جاءني من يحبني، من يريد معانقتي واحتضاني، من يخاف عليّ، من يقلق لشأني، جاءوا محملين بالورد والعطور، وبيدهم ملاءة ناصعة البياض، أرادوا جعلني شبيهةً لهم في

نورانيتهم.

الآن شعرتُ بالدفء بعد أن أضناني البرد يا أمي، فقد ألبست ثوب الحب والحنان، ولأول مرة أشعر بأنني موضع اهتمام بعد أن كنتُ في غياهب النسيان.

ولهذا نشأت لينا مشوهة عقلياً تعاني من التوحد ، والتخلف العقلي، لم تستطع المشي ولا الحبو ولا الزحف، ولم يرغب والداها في الاهتمام بها والسعي لتربيتها تربية صحيحة، ولم يرغباً حتى في الانفاق عليها ولو قرشاً واحداً) وهو مبلغ قليل جداً من المال في مجتمعنا(

كانوا يقولون لها: "حرام أن ندفع عليك ولو مبلغ بسيط من المال.... لا أمل يرجى منك."

وبعد مرور شهور وسنين على وضع لينا المتدهور ونفاقم حالتها لم يعد الوالدان حتى يقدمان لها الحليب إلا بمقدار بسيط جداً ومرة واحدة في اليوم فقط ، وكانوا يرمون بزجاجة الحليب في وجهها وهم يقفون أمام باب غرفتها، فقد أغلقوا عليها باب العذاب وباب غرفتها كي لا يعلم أحد من الجيران بها، فكانت بعجزها وضعفها وجوعها الشديد تحاول جاهدة للإمساك بزجاجة الحليب لكنّها كثيراً من الأوقات لم تنجح في الإمساك بها، فتصرخ وتبكي بكاءً يهتز له عرش الرحمن، لكنّ قلوب والديها لم تحرك ساكناً، وأتما كانت من القسوة بحيث فاقت قسوة الحجارة.

حيث يغلقون عليهم باب غرفتهم ويتابعون ألعابهم الجنسية القذرة وهم يضحكون، فقد اعتادت رياض ممارسة الحب بقسوة مستمتعة بكل أفعال زوجها بها، بل حتى استهوتها ما كان يفعله بها، وبانت تعدّه

طريقة جميلة للتعبير عن الحب والشهوة.

أما الصغيرة لينا فلم يسمعها أحد، وكان سقف غرفتها هو كلُّ عالمها، فكانت تبقى على الوضعية ذاتها ممددة على ظهرها أسبوعاً وربما أشهر، راحتها تملؤ الغرفة، فملابسها لا تبدل وإنما تبئد بمائها ومن ثم تجف لوحدها، أو تتلوث بغائظها ليصبح كقشرة سميكة يكسيها من الأسفل، ليصدر صوتاً كلما حاولت أن تميل يميناً أو يساراً.

وفي كل صباح يفتح لها باب الغرفة ليطل والديها ويلقون نظرة سريعة على زجاجة الحليب، فإن وجدوها مليئة بالحليب أغلقوا الباب، وإن كانت فارغة اضطروا للدخول متأففين من راحتها ليملئوها لها.

ومع كل يوم تزداد تقرحات جلدها لتنزف دماً، ولتسكنه الديدان فتخرج منه وتدخل دون أن يوقفها أحد، ومن ثم تضاعل جسدها وضمر، فلم تعد لها قدمين كال بشر فركبتيها كانت بمحاذاة رقبته ويديها ملفوفتان للخلف.

لم يواسيها سوى دموعها، التي كانت كثوب اعتادت ارتداؤه ليقبها من كل هذا الشر والألم، إلى أن حانت لحظة رحيلها لتسكنها السعادة والراحة اللتان لم تشعر بهما أبداً طوال السبع سنوات التي عاشتها.

لقد أخبرتني خالتي رياض بقصة ابنتها وكانت شديدة الندم، لكن ما نفع الندم بعد كل ذلك الألم الذي عانته لينا.

لكن، ما لبثت قصة لينا أن دفنت تحت قبر النسيان، ولم يعد لذكرها أي مبرر، وعادت الحياة بالنسبة لرياض ومحمود كما اعتاداها سابقاً، عمل وتنظيف وظهر وممارسة الحب المشوه بطريقتهم الخاصة.

لينجبا بعد ذلك " نور الصبي المشاغب شبيه والدته وحبیب قلب أمه، ومن ثم الطفلة الثانية " رزان " حبيبة قلب والدها وشبيهته وخاصة بلون بشرتها البيضاء الصافية، ورغم أن الاثنين قدراتهما العقلية قليلة إلى حد ما لا تتعدى السبعين درجة، حيث لم يتمكنوا من متابعة دراستهما ليخرجا من المدرسة وهما في الصف الثالث الابتدائي فقط ، إلا أنهما تميزا بذكاء اجتماعي عالي.

أمّا خالتي الأخرى فتدعى " حنيفة " وكانت حياتها مليئة بالكثير من الحزن والألم، فقد عاشت طفولتها وهي منبوذة من الآخرين فقد كانت شديدة السواد ، وهذا جعل الآخرين يلقبونها " سوداء " ليزداد وضعها سوءاً، وتعقيداً، وليضاف لعقدتها الكبرى وهي اسمها، فلم تكن تحب اسمها أبداً، وكانت تصرُّ على أن ينادونها ب" حنان " وليس حنيفة، ولم يكن أحد يستمع لها أو يلبي رغباتها، وهذا ما دفعها لتترك المدرسة والبقاء في المنزل، ونظراً لأنها كانت في نظر العائلة الفتاة البشعة التي لا أحد ينظر إليها، أو يرغب أحد من الرجال في التحرش بها، فكانوا يدفعونها لتحضر حاجيات المنزل عوضاً عن الفتية، ومهما كان ثقل الأشياء التي تحضرها فلا أحد يساعدها أو يقف معها.

ففي عائلة جدي، مقياس الجمال هو من أهم المقاييس في العالم، ربما ليس فقط في عائلة جدي، بل في أرجاء العالم، فالجمال مقياس ثابت تجده أينما ذهبت في الصين، في الهند، في الفلبين، أو في أوروبا، فبالنتالي هذا المقياس سيحتل الجزء الأكبر في بلدٍ نام كبلدنا سوريا، لا يقارن بالبلدان السابقة ذات الحضارة والعلم والثقافة، لكن في مجتمعنا المحلي يؤخذ الجمال ويحدد بامتلاك الفتاة لسمات معينة كالبيضاء الناصعة والوجه المدور ، والجسد الممتلئ، والصدر البارز، والمؤخرة الممتلئة.

وربما نعد البلد الأول عالمياً في المقارنة بين نساءنا وفتياتنا.

كبرت حنيفة واستمرت حياتها من بكاء لآخر حتى تزوجت بشخص يعاني من شلل الطفولة، ورغم وضعه الصحي، إلا أنه وجد نفسه يستحق زوجة أفضل منها بكثير، فغاب فترة بعد رؤيته لها تجاوزت السنوات، ليعود إليها بعد أن رُفض من قبل الكثيرات من الفتيات، لتستمر معه في الحياة كزوجة مهزومة وقليلة القيمة، فكان يعاملها كخادمة وكوعاء ممكن أن ينجب له الأطفال، فقد أنجب طفلين، رباهما على أنهما أفضل الأطفال جميعاً لدرجة الغرور، وغرس في عقولهما أن دور والدتهم يقتصر على كونها خادمة لهما فقط.

الصبي كان الأكبر ويدعى "عماد" ويتصف بأنه طفل عدواني لدرجة كبيرة جداً، وكثيراً ما أوقع نفسه في مشكلات مع أهل الحي لضربه أبناءهم أو سرقة ممتلكاتهم أو تخريبها أو إزعاج الجوار بصراخه أو ركله على أبواب منازلهم صباح مساء، ولم يكتف نشاطه العدواني خارج المنزل لينقله لداخل منزله، فبات يضرب أخته الصغيرة وبعضها ويمزق ثيابها، والوالد يشجعه على ذلك من باب تربيته لأخته وأنه المسؤول عنها بحكم أنه سيصبح رجل، وتطور الموضوع لتصبح الأم هي مادة الضرب لهذا الصبي، ووسيلة تفريغ لشحناته السلبية. أما الصغيرة فتدعى "علا" ربيت دون أي مبدأ أو أسس، فقد كان الضرب هو معلمها، الذي إلى الآن وبعد أن أصبحت كبيرة في العمر ومتزوجة لم تفهم لماذا ضربت وما سبب ضرب أخيها لها؟، وربما هذا الضرب هو من جعل منها مجبولة على الحقد والأنانية والكره، فما إن بلغت، حتى اختفت من المنزل وأطلقت العنان لنفسها، وشرعت أجنحتها لتغادر عشها الصغير البائس وتنتقل لعش آخر يملؤها بالحب الذي لم تشعر به يوماً، وبالطبع هذا ما استطاعت القيام به لأن والدها قد توفي قبل ذلك بسنوات.

ولم يصلنا أخبار عنها إلا بعد فترة طويلة من الزمن، وعن طريق جارة كانت تسكن بجوار منزلهما، شاهدتها في أميركا مصادفة، لتعود للوطن وتخبر والدتها أنها التقت بابنتها وأنها متزوجة.

ولننتقل لنوران هي خالتي الصغرى ودلوعة العائلة، فلا يرفض لها طلب، ولا يتم جبرها وضغطها على شيء، فلا هي نجحت في مدرستها ولا استطاعت تعلم الخياطة، لتبقى في المنزل تهتم بنفسها وجسدها فقط، لتتزوج بشخص في عمرها لكنه عقيم، ورغم معرفتها بعقمه وموافقته على الزواج منه برضاها دون إكراه من أحد، إلا أنها كل يوم تحسب عمر طفلها الذي لم يأت إلى هذه الحياة، وتلعن وتسب اليوم الذي تزوجت به من هذا الرجل العقيم على حد قولها.

وزوجها الغريب المختلف شكلاً ومضموناً، يجارها في حساباتها، كان يدعى " أمين " ، ولم يكن له من اسمه نصيب، فلا هو أمين على زوجته ولا على مالها ولا على كلامه أو كلامها، بل يمكن القول لا يؤتمن جانبه أبداً.

والحياة بالنسبة له لعبة رمزية، كل ما فيها يرمز للجنس، ولولا أنه لم ينل سوى الإعدادية، لقلت أنه وريث العالم النفسي الملقب بأبو التحليل النفسي " فرويد " ، لشدة اقتباسه من كلامه، فإن أنت ضحكت فسلوكك هذا يعد رغبة في استثارة الآخر ، وإن وقفت أو جلست، فكلها تشير لرغبة جنسية خفية.

لم يبق من فتيات العائلة سوى الفتاة الكبيرة بينهن " صباح " والتي تعد حكايتها من أنجح القصص، فهي كانت نصف عمياء، ولدت بعين ميتة وأخرى سليمة، وكانت شديدة النحول، وبارزة العظام والعروق. لكنها لم تستسلم ثابترت وتخرجت من الثانوية ودخلت معهد لإعداد

المدرسين، لتصبح أستاذة ثم مديرة لاحقاً. وتبنت المهنة وشربتها حتى باتت تجري في عروقها، فأينما جلست صباح عاملت من حولها وكأنهم طلاب لديها، سواء أكبر منها أو أصغر. والويل لمن خالفها في الرأي، فهي مع علمها وثقافتها قد وصلت لأعلى قمة، لم يصل إليها أي فرد آخر من العائلة. وربما هذه الصفات العظيمة التي تمتلكها كانت السبب الوحيد في عدم زواجها، لتستقر لاحقاً في منزل أخيها الصغير أيمن مع زوجته وأولاده.

هذه الشخصيات الأنثوية في عائلتي كان لها دوراً كبيراً في حياتنا، بل وحتى في طريقة تفكيرنا.

أما أخوالي الأعمام، فالحديث عنهم يطول كثيراً، لذا سأختصر وسأوجز لكم المفيد....
الأكبر منهم ويدعى " خالد"، كان خالد للعهد، خالد للحب، خالد للخضوع لزوجته، خالد في كل شيء يخص زوجته وأولاده.
أما أمه وأخواته فكان كالمفارق، أو الغريب الذي لا يعلم أو لا يريد أن يعلم عنهم شيئاً.
هل هم في صحة أم مرض؟ هل يحتاجون المال أم لا؟.... إلخ.

منذ أن بلغ سن النضج في الثامنة عشرة، وهو يرفع راية زوجوني وإلا رحلت وغادرت المنزل دون عودة.
فاضطرت جدتي ... والدته.. أن تبحث له عن زوجة، ونظراً لثقته العمياء في جماله فلم يكن يعجبه العجب، وكثيراً ما انتقد الفتيات اللواتي كانوا بمثابة عينة جيدة للخطبة من وجهة نظر جدتي.... أما بالنسبة له، فهذه طويلة أكثر مما يجب، وهذه قصيرة، هذه سمراء، هذه

سمينة، هذه ذات عيون صغيرة، وتلك فيها كبير.... وهكذا لا فتاة تعجبه.

إلى أن تعرف على رجل كان بائعاً للملابس، في الخمسين من عمره، لبق ومتحدث وأنيق وذا سمعة حسنة، عرض عليه الرجل لمحيطه لخالي خالد أن يزوجه ابنته، فوافق دون اعتراض نظراً لإعجابه الشديد بوالد العروس.

تزوج خالي في منزل العائلة، وخصصت له غرفة منفردة وجهزت بأفخم الأثاث، كانت الزوجة تدعى سامية، وبها من الحسن ما يجعلها تنال إعجاب من حولها، لكن لم يشأ القدر أن يعطيها كل شيء، إذ حرمتها من الإنجاب، فكانت عاقر في نظر المجتمع، ولا نفع منها في نظر جدتي، التي ألحت عليه مراراً وتكراراً ليتزوج عليها زوجة تتجب له الأطفال، كي يكونوا عوناً له في كبره وحين مرضه. وبعد مد وجذر، وافق خالي على الزواج بأخرى، وكانت تصغره بعشر سنوات، نشيطة وممتلئة وجميلة إلى حد ما، ولكن ما يميزها أنها كانت راقصة.

وبغنجها ودلالها أسقطت الملكة السابقة عن كرسي الحكم، لتصبح هي الملكة، حيث طلق خالي زوجته سامية، وأصبحت سمر الزوجة الحالية هي الأولى والأخيرة.

تملكت سمر قلبه وعقله، ومن هذه النافذة بدأت المشاكل في منزل العائلة، وكان خالي دائماً يقف إلى جانبها وإن كانت على خطأ، وربما وجود سمر في حياتي أمني وخالاتي، هو من كان السبب والدافع الأكبر لهم ليتزوجوا زيجاتهم العظيمة والرائعة.

وحظي خالي أخيراً بالأطفال، من الأبناء اثنين " بشار وبلال"، ومن البنات اثنتين " بيان وبشرى".

وهم كانوا أكثر الناس عوناً له في مرضه، حيث لم يرى خالي على الإطلاق وجه أي منهم، حين مرض بسرطان الرئة لاحقاً وتوفي على إثره.

أما خالي نديم، فكما كلمتكم سابقاً كان أكثر الناس اهتماماً بأخته رياض، وكثيراً ما عبر لها عن جمال ملامح وجهها وجسدها بالكلمات الرقيقة والإشارات اللطيفة، ولم تكن رياض الوحيدة التي حظيت باهتمام خالي نديم، بل حتى خالتي حنيفة التي أطلق عليها الكثير من الألقاب الجميلة، السوداء، أم نصف لسان ... وربما هذا لأنها كانت تبدل الحروف حين تتكلم، فبدلاً من اذهب كانت تقول اذهب، أو اذهل ... أو السين بدل الجيم ... وغيرها من الألقاب والصفات الحميدة.

وبهذا كان نديم ناقد العائلة ذو النظر الثاقب الذي لا يخيب، ورغم أنه ظل عاطلاً عن العمل حتى بلغ الثلاثين من عمره، وهو يأخذ مصروفه من أخواته الفتيات، أو يسرقه إن لم ترضين إعطائه، ومع هذا فلم تسلم أختاً له من كلامه الجارح ولسانه القاسي.

حتى تزوج من أرملة رغم صغر سنها، وعاش معها سنوات وسنوات دون تفاهم ودون أي محبة، ومع هذا أنجبا خمسة أطفال، فتاة وحيدة هي ابنتهما البكر وتدعى فاطمة، وأربعة أبناء عوض وإلياس وأدم وعبد الرؤوف.

وجميع أسماء الأطفال كانت رؤى تأتي للأُم في المنام، هذا ما كانت ترويهِ علينا زوجة خالي نديم والتي تدعى "كوثر" كلما اجتمعنا بها، حتى بتنا نحفظ حديثها بتفاصيله الدقيقة.

وكوثر كانت كريمة ومعطاءة، ليس بالمال كما ظننتم، ولا حتى

بالملابس أو الادوات، وإنما كانت معطاءة في حليب صدرها، فكلمنا رأت صغيراً يبكي من عائلتنا وضعته على صدرها وأرغمته ليرضع منه، حتى بات أبناء العائلة جميعهم من أبنائها.

وإلى اليوم لا نعلم ما إذا كانت الرضاعة كافية لتحرمنا عن بعضنا البعض، أم أنها لا تشبع الصغير، وبهذا يمكن لابنة الخال أن تتزوج من ابن خالها، ومع هذا فقد حرمنا بعضنا عن بعض بإرادتنا، لا لشيء فقط لوجود الكره والحقد والقسوة والبغضة بين أفراد العائلة.

ولأننقل لأحدثكم عن وليد، خالي الذي يقبونه بزير النساء، فلم تسلم منه فتاة في الحي أو في الأحياء المجاورة، بل حتى في المناطق البعيدة، فأينما ذهب يغازل الفتيات ويتحرش بهن، ويكتب لهن القوائد ويرميها أمام منازلهن.

ولم تكن تكفيه امرأة واحدة، ومع هذا كانت زوجته له بالمرصاد، فكلمنا استطاع نيل موافقة فتاة على الزواج به رغم أنه متزوج ولديه أبناء، حتى تذهب زوجته والمدعوة سناء لتفشل خطته.

وهكذا سنوات وسنوات، ومع مرور خمسين عاماً على زواجهما وما زال خالي رغم ضعفه وكبر سنه يغازل الفتيات ويتمنى أن يقبلنا بالزواج به.

وكان أكثر الأخوة أبناء، من الأبناء " أحمد ومحمد وسامر وماهر " ومن البنات " سحاب ورشا ونورا ورناء ".

أما صغير العائلة أيمن، فكان طيب القلب، كريماً، خلوقاً، لا يشبهه أخوته، ترعرع في دور العبادة وتعلم علوم الدين وحفظ أحاديث الرسول ص، حتى بات شبيهاً بأخلاق سيدنا محمد.

تزوج وأنجب أربعة أبناء " يوسف ويامن ومام ويزن ". ورغم شدة إيمانه وتدينه لكنه ابتلي بزوجة غريبة أنانية محبة للمال،

أرغمته على السفر لا لشيء فقط ليحضر لها سيارة شبيهة بسيارة جارتها سعاد، ومنزل شبيه بمنزل جارتها ريماء، ومصاغ من الذهب يلعب في يدها كما يلعب في يد سلفتها سناء.

وهكذا حتى يومنا هذا وهو يعمل خارج البلاد ليحضر لها متطلباتها الكثيرة التي لا تنتهي.

وبينما كانت حياة والدتي مريم تشوبها بعض الشوائب، إلا أنها بالتأكيد كانت أفضل حالاً من حياة والدي إبراهيم.

فقد عاش والدي وترعرع في كنف والدته فقط، يتيم الأب ويتيم الأمومة.

فحياة جدتي تعيسة لكثير من الفتيات التي ولدنا معها، رُوجت وهي في التاسعة من عمرها، لشاب يكبرها بعشرات السنين، ثم توفي بعد زواجهم بفترة قصيرة، لتتزوج مرة أخرى من جدّي، الذي يكبرها بسنوات تتعدى العشر، لتبقى معه أحد عشرة سنة، وتنجب منه ثلاثة أطفال، أكبرهم فتاة في التاسعة من عمرها، يليها فتى في الثامنة، ثم أبي في الثالثة من عمره.

كانت وفاة جدّي صدمة لها، عاشت خلالها صراعاً ما بين خوفها من مسؤولية ثلاثة أطفال، وخوفها من أمومتها الطفولية التي لم تولد بعد، فلم تعلم معنى كلمة أم ولا معنى كلمة أمومة ولا حتى كيف تهتم بصغارها.

فتكالبت عليها الظروف، ليتدخل بها من يشاء، من قريب وغريب، جار وصديق، والد وعم، لينتهي مصيرها بتقسيم هذه العائلة والتفريق بينها، حيث أخذ منها طفليها الأكبر عمراً، ولم يبقوا لها سوى طفلها ذو

الثلاث سنوات.

تربى عمي وعمتي عند أعمامهما، أمّا الأم والصغير ، جدتي وأبي فقد عاشا تحت جناح خال جدتي وأولاده وسيطرتهم عليها، وبذلك لم يعد الصغير يرى أخوته ولم تعد الأم ترى طفليها، وهذا زاد من تعاستها وألمها.

وبذلك عاش هؤلاء الأطفال اليتيم الكامل يتم الأب والأم، فاليتيم كالسكين التي تُرمى فجأة على يدك فتقطعها معاً، أو كمنار مستعرة تهب فجأة في وجهك فتشوهه وتغير ملامحه، فلا العين تبقى مكانها ولا الفم، بل ربما اليتيم كلمة أفسى من ذلك كله.

عاش الصغيران، الفتاة وتدعى " خديجة " والفتى ويدعى " فهد " يتيمين الأب والأم، وعاش الصغير " إبراهيم " والدي يتيم الأب ويتيم الأمومة وليس الأم، فأُمّ بلا أمومة، كأمراة باعت رحمها لامراة أخرى لتتجنب لها ولتسكن خلاياها مضغّة غريبة عنها، ثم لتلدّ رضيعاً لا يشبهها في شيء تعيده لتلك المرأة دون أن تأخذ ثمناً على فعلتها.

عاملت جدتي " إبراهيم " كضيفٍ صغير فُرض عليها، فلا كانت أمّاً له ولا أختاً، لتتعایش معه كأى قطعة أثاث، كسريير، كخزانة، أو أى شيءٍ آخر.

فلم تحسن تربيته ولم تفرض عليه شيء ولا تضع له حدود لا يتجاوزها ولا تمنعه عن شيء. كما أنّها عجزت عن أن تلبى له أى رغبة، مسلوبة الإرادة، فلا حنان ولا قسوة، ولا حرمان ولا عطاء.

وبهذا نشأ والدي " إبراهيم " لا يعلم الصواب من الخطأ، ربّى نفسه بنفسه، ترك المدرسة وهو في الصف الأول، ولم يمنعه أحد، عمل في محلٍ للحلويات، يكدح فيه طوال النهار، وهذا المحل كان لأخواله،

فعومل بقسوة كأي صانع بدوام كامل من الصباح حتى المساء ويمرتب قليل لا يكفي لشراء بعض الطعام له ولوالدته، ومتطلبات عمل كثيرة، من كنس لتعليب الشوكولا والساكر في علب، إلى حمل هذه العلب وتوزيعها، إلى المساعدة في إعداد وصنع الحلوى دون مراعاة لعمره الصغير ذي السبعة أعوام، كان يهرب أحياناً من المحل ليتمشى في السوق، فيتلقى عقوبة الضرب والجلد على يديه وقدميه جراء فعلته، واستمر حاله هكذا كل يوم، فلا أمه تستطيع عمل شيء له ولا محادثة أختها وتوصيتهم عليه ولا مجادلتهم في طريقة معاملتهم لطفلها، ولا هو كان بمقدوره مواجهتهم أو الوقوف بوجههم وهو غصن أخضر صغير.

إلى أن كبر إبراهيم وبلغ سن المراهقة، واتخذ القرار بترك المحل نهائياً، وترك العمل لدى أخواله، ولم ينتظر موافقتهم، بل انتقل مباشرةً لمحل آخر لتصنيع الشوكولا يُدعى " داماس " يُعدُّ منافساً لأخواله، لينتقم منهم، وكان محلاً كبيراً وماركة مشهورة في ذلك الوقت، وهناك أتقن صنع الشوكولا بشكلٍ جيد ، وشعر باستقلاليته واعتماده شيئاً فشيئاً على نفسه وتحرره من سيطرة أقرباء والدته، وهذا دفعه ليتحرر منهم في البيت كذلك ، ليهرب من بيت أخواله هو ووالدته ويستأجر منزلاً صغيراً في حي شعبي، يستطيع دفع أجاره ممّا يكسبه يومياً.

ولم تكن مهنة الشوكولا هي المهنة الوحيدة التي عمل بها والدي، بل تتالت المهن التي ارتادها وأتقنها، من سواقة إلى نجارة إلى تجارة حرة ، وحينما بلغ من العمر الثامنة عشرة طلب لخدمة العلم والالتحاق بالجيش، ليتلقى التدريب على فنون القتال والدفاع عن الوطن، كانت مدة خدمة العلم لا تتجاوز السنتين ونصف إلا أنّ الكثير من الشبان يستهجنون بقاؤهم هذه المدة ويعتبرونها مدة طويلة يحرمون منها من كافة مظاهر العيش المرفه كما يسمونه.

ففي فترة التدريب تلك، يسافر الشاب ممّن بلغ من العمر الثامنة عشر

إلى إحدى القرى الريفية البعيدة ليقيم فيها بعيداً عن أهله، ودون وجود س ينام فيه، فالخيم هي مسكنهم والأرض هي أسرّتهم، أمّا طعامهم فبسيط، يُعطى لهم كوجبة واحدة فقط يومياً يتناوبون فيها على الطبخ بأنفسهم، حينما ترسل إليهم كافة المواد الأولية الضرورية لإعداد وجبة طعام، أكثر ما يطبخ كان عبارة عن برغل أو رز وهذه كانت وجبة مميزة بالنسبة لهم. ثمّ عليهم الاستيقاظ باكراً قبل شروق الشمس والاستحمام بماء بارد كالثلج، وإن كان الجو بارداً، وبعدها يتعرض لكافة أنواع القتال من قتال باليد إلى قتال بالسلاح وكأته في معركة حقيقية، كما يتم تعليمه على التنكر والاختباء من العدو والتسلق والقفز وغيرها من المهارات الضرورية للقتال في ساحة المعركة.

وبموجب ذلك يقضي السننين والنصف دون رفاهية ودون حتى السماح له برؤية أهله، كما يتوجب عليه حلق كامل شعره، وهذا كله كان بالنسبة لأبي موقف لا يمكنه تحمله أو البقاء فيه ولو ليوم واحد، وهذا ما دفعه للهروب من الجيش، وبذلك لم يتمكن من الحصول على هوية تثبت كامل حقوقه المدنية في مجتمعنا المحلي، فصار طريداً وملاحقاً من قبل الشرطة والجيش لتهربه من واجب والتزام أساسي، وهذا منعه من الاختلاط بالمجتمع خوفاً من السجن، فارتأى أن يسكن هو ووالدته في منزل بعيد نائي في منطقة منعزلة عن السكان وعن الشرطة وعن العالم بأسره، يحيط بالمنزل البساتين من الخلف، ومن الأمام العشوائيات والشوارع الفدرة والأنهار المليئة بمخلفات البشر، واتخذ هذا المسكن مأمن له حتى وفاته.

إلا أنّ ابتعاده وهروبه واختفاؤه في هذا المنزل لم يكن سبباً كافياً لجعله يشعر بالأمان، وبذلك عاش معظم حياته قلقاً متوجساً من أن يتعرف عليه أحد أو يكشف أمره أحد، وهذا الخوف كان عاملاً أساسياً في دمار أسرّتنا بأكملها، وقد وُرت والدي هذا الخوف لنا، كلُّ منّا نال نصيبه من الخوف والقلق والتوتر.

وقد استطاع أحد معارف والدي تزوير هوية له ليستطيع التوظف في إحدى مؤسسات الدولة، وهذا حينما بلغ من العمر سنألم يعد يرغب فيه في الاستمرار بمهن عديدة ومختلفة، وذلك في متوسط العمر، وبهذا استقر ليكون موظفاً في مؤسسة زراعية، يعمل فيها على تصليح الأجهزة الميكانيكية، فدخلت هذه الوظيفة وشكلت جزءاً أساسياً في روتينه اليومي.

الاستيقاظ مبكراً وتناول الفطور والذهاب للعمل ثم العودة منه وهكذا....

ومع ثبات مهنته اقتنع بفكرة الثبات الأسري بعد رفضه الشديد لموضوع الارتباط وتكوين الأسرة لسنوات وسنوات، ليتزوج أخيراً بوالدتي مريم لتصبح شريكته وبيت أسرارها، ومن هنا تبدأ قصتنا قصة لن ينساها الزمن مهما طال ومهما تعددت السنون وتنازلت الأيام والشهور.

وبينما تربى والدي في جو من الفقر والتعصب والظلم، نشأ أخويه في جو من الحب والسعادة والرفاه المادي والنفسي والاجتماعي، حيث تكفل بهما عم العائلة وهو رجل ثري أحب الطفلين وتبناهما كأنهما طفليه، فكانت طلبتهما كلها ملبأة، من هدايا وملابس وطعام ورحلات وسفر، كبرت عمتي والتحقّت بالمدرسة للصف التاسع فقط حيث تزوجت من رجل غني هو قريب والدتي بمثابة " الخال " لها ويدعى " أديب "، بالرغم من أنه كان أكثر ثقافة من عمتي وأكثر علماً فهو قد تابع دراسته الجامعية في كلية الآداب، وبالرغم من أنه يكبرها بثمان عشرة سنة، إلا أنهما تزوجا واستمرا في الحياة الزوجية رغم الكثير من الخلافات والتناقضات والفروقات الشاسعة فيما بينهما، وأنجبا تسعة

عشر طفلاً ، لم ينجو منهم سوى عشرة أطفال، "بهاء الدين، وضياء الدين، ونور الدين، وبدر الدين، وعماد الدين، وسعيد، ووصفا، وهنا، ومنى، ومروة".

أصيب لاحقاً كل من بهاء الدين وبدر الدين وعماد الدين بالسرطان، بهاء في راسه، وبدر في عظامه، وعماد في رئتيه، ليتوفيا على إثرها. بينما منى ورثت السكر هي وسعيد ومروة من والدتهم .. عمتي خديجة.. لتدخل مروة في غيبوبة إثر ارتفاع درجة سكرها، في حين أصيبت منى بالزهايمر بالإضافة إلى السكر، وعانت الكثير حتى توفت.

بينما عمّي فهد.. ولا أعرف لماذا سمّي بهذا الاسم، استمر في تعليمه الجامعي، والتحق بكلية الشريعة وتخرج منها ليعمل خطيباً في الجامع، وليتزوج لاحقاً من ابنة أحد شيوخ الجامع والتي تكبره بست سنوات، وأنجب منها سبعة أطفال " صادق، شهناز، كنان، هنادي، هُنّادي، سهاد، عادل".

أصيب صادق بشلل رباعي إثر ارتفاع حاد بضغط الدم، وعانت شهناز من سرطان الكبد حتى توفت، في حين زوجة عمي أصابها سرطان الثدي وتوفت به.

هذه الهوة الكبيرة ما بين والدي وأخوته اتسعت مع التقدم في العمر، ومع زيادة الخلافات فيما بينهم، ليصبحوا أعداءً لا أخوة، وانتقلت هذه الكراهية إلى أولاد كلٍ منهم، فلا نحن نحب سماع أي شيء من أخبارهم ولا هم كذلك.

أما جدتي، الضيفة المجهولة، نزيلة الغرفة الثانية ، فكانت وحيدة، وحيدة جداً.

كانت غرفتها بكل ما تحتويه من أثاث وأدوات وملابس تؤكد مدى وحدتها، فقد عاشت هذه المرأة وماتت وهي وحيدة بيننا، نتمنى يوماً لو استطاع أحد إخراجها من قوقعتها وعزلتها قسراً، لكننا لم نشأ أن نتدخل هكذا كئنا نفكر ، لكن الحقيقة أننا اعتدنا وجودها في غرفتها ولم نرغب أن تشاركنا حياتنا.

وهي بدورها اعتادت الوحدة، فلم تجد من يحبها ومن يساندنها، لذا سكنت غرفتها وكأنها حبيسة هذه الغرفة وحبيسة نفسها كذلك.

كثيرون منا يحجرون على أنفسهم وهم بين الآخرين، لا تعلمهم، تظن أنك تعرفهم جيداً فلا تشعر بوحدتهم، وذلك لأنهم فرضوا على أنفسهم حجراً خفياً ليس بظاهر.

فهناك فرق كبير بين حجر صحي وحجر نفسي، ففي الحجر الصحي نأمن أنفسنا من الهلاك، من وباء أو جائحة أو مرض خطير، ونأمن بذلك أطفالنا وأحبائنا، فنزداد قرباً يوماً إثر يوم، ندعم بعضنا لنجتاز هذا الخطر، ونعبر معاً لطريق الأمان، إلا أننا في الحجر النفسي، نحيط أنفسنا بالهلاك، فلا نحب أن يشاركنا أحد لكي لا يهلك معنا أو يشعر كما نشعر.

نبتعد عمّن حولنا دون أن نشعروا حرصاً منا على سلامتهم، نتغير دون أن يروا الفرق، فنكون بذلك كمن سقط في غرفة صغيرة بيضاء لا نافذة فيها ولا باب ولا أثاث ولا متاع، لا شيء، سوى البياض، لا جدران، ولا أرضية، ولا نعلم هل نحنا على السقف أم أننا على الأرض، فنعيش صراعاً دون صراخ، وألماً دون بكاء، وحرناً دون أنين.

وهذا كان حال تلك الضيفة المجهولة التي فرضت على نفسها أو فرض

عليها هذا الحجر النفسي، حجر على الذات، مع حجر صحي ليس من وباء وإنما من الاختلاط بالغير، من معاشرة الأقرباء أو الأبناء أو الأحفاد، وكذلك حجر عقلي فقد ماتت وعمرها العقلي لا يتجاوز العشر سنوات.

فقد كانت حبيسة طفولتها حتى ناهزت التسعين من العمر، لتنتهي رحلتها وتمضي لتسلك درباً آخر لا نعلمه، لقد كانت هذه المرأة المجهولة " جدتي " أم أبي، ولا يمكنني حتى أن أناديها بذلك الوصف أو بتلك الكلمة " جدتي " فلم أعرف معناها هذه الكلمة أبداً، فلا حنان ولا عطف، ولا مشاعر، حتى أنني لا أذكر نبرة صوتها، ومهما حاولت استرجاع صوتها لأتأكد من أنها كانت تستطيع النطق أفضل.

هذه عائلتي ... إنها عائلة مشوهة.... ومن أنا لأقول عنهم هذا، ربما لو قرروا ما كتبت عنهم ليظنوا أنني أبالغ نوعاً ما، لكن لأصدقكم القول لم أتكلم سوى بالقليل القليل.....
لأعود الآن وأقص عليكم طفولتي أنا وأخوتي.....

الغيرة " طفل واحد غير كل شيء

"الغيرة... ذلك الوحش الصغير الذي ينمو في قلوبنا حين نرى الحب يُمنح لغيرنا." "أمي تحبك أكثر" لأثير عبد الله النشومي:

"في قلوب الأطفال غيرة صامتة كالضباب، تختنق فيها المشاعر قبل أن تبلغ الشفاه." من "الأجنحة المتكسرة" لجبران خليل جبران

مع تتالي الأيام بت أقرب لوالدتي، وخاصة بعد ولادة أخي الصغير سامي، حيث شعرت حينها بالهجر.

ولكي أمحو عني صفة النفي، أصبحت أكثر قرباً لأمي وأكثر تعلقاً، التصقتُ بها التصاقاً ربما لتغفر لي خطيئة لم ارتكبتها ولم أعلم بها ولا أذكرها، أو لأبعد عني شعور غير واعي يسيطر عليه الخوف والقلق من مصير مجهول ينتظرنني، أو ربما هو شعور حقيقي بأنني لم ولن أكون نزيلة هذا الرحم يوماً.

وهذا ما اكتشفته لاحقاً... ألا ليتك يا أمي لم تخبريني به... وربما حتى لو لم أخبر به... لكنني شعرت به منذ ولادتي.

أصبحت كثيرة البكاء، وكثيرة الخوف، الأحق والدتي أينما تذهب كظلها، أسير وراءها كأثر تخلفه على رمل حارق، أتبعها حين تطبخ وحين تنظف، وفي الحمام وعلى السطح، أتعلق بريقبتها، وأجلس على حضنها وأدفن وجهي بجسدها وأنفي بصدرها لأشتم رائحتها، فيستكان خوفي، وتهدأ مشاعري المتوهجة، وحين تدفعني عنها بعيداً أصرخ مستنجدة، لتعود وتحملني وتعانقني من جديد، ويزداد تعلقني بها في حال وجود الغرباء الذين هم أقرباء لنا، لكنهم في نظري غرباء قد يأخذوني بعيداً عن أمي.

أما أخوتي الأعداء الأعداء، أو الغرباء الأقرباء، فلاسرد عليكم بعضاً من خصالهم الحميدة التي تعززت حينما كبروا.

ولأبدأ بسامي، الذكر الوحيد على البنات، آخر العنقود، ولد في يوم شتائي قارس البرودة، في الساعة الواحدة ليلاً، أطلقت أمي صرخاتها فأخذها أبي مسرعاً لمنزل جدتي، وهناك أحضروا لها الطبيبة "سوزان"، لكن لم تكن تصل الطبيبة حتى سمعت صراخ أخي الذي أعلن حضوره وعدم حاجته لمساعدتها، فقد كانت أمي سريعة الولادة دائماً في جميع أخوتي، لم تحتج لوقت طويل، ربع ساعة أو أقل ويكون الطفل قد ولد، ساعدها في ذلك حركتها الدائمة في المنزل من تنظيف وطبخ وغسيل واهتمام بواجبات والدي وواجبات الضيفة النكرة.

بالرغم من أنّ أخي الصغير كان مسلياً ومرحاً ومرتبباً بي، إلا أنّي بوجوده شعرت بتعقد مشكلتي، ففي مجتمعنا يُعدُّ الطفل الدليل الواضح على رجولة الأب، وعلى أنوثة الأم، فمهما أنجبت الأم من فتيات، لا تُعدُّ أمّاً حتى تنجب الذكر، فالصبي هو من يحمل اسم العائلة ويرفعها، ويرثها ليخلد ذكراها، ويورث اسمها للأجيال اللاحقة، بينما الفتاة تحمل اسم أبيها فقط لفترة مؤقتة، لأنّها ما إن تتزوج حتى تنتقل لعائلة أخرى، ويرتبط اسمها باسم زوجها، ومهما أنجبت من أطفال لا تعدّهم العائلة "التقوى" جزءاً منهم، لأنّ أسماءهم لا تحمل هذا اللقب بل لقب أبيهم الغريب عن العائلة.

وفي شريعتنا لا تتغير كنية الأم الزوجة كما في بلدان أخرى كلبنان ما إن تتزوج، ما يتغير فقط هو خانيتها ونفوسها ومكان إقامتها، ومع هذا بمجرد أنّها لا تستطيع نقل هذا الاسم الجليل "التقوى" لأطفالها الذين تتدلى من أعناقهم فلاند عائلة أبيهم فقط، فإنها بذلك تكون قد خانت

العائلة التي ترعرت في كنفها، وهذا كفيل بعدم الاهتمام بها منذ أن تطأ بقدميها هذه الأرض إلى أن ترحل عنها.

والى يومنا هذا، بالرغم من أننا في عصر التطور والتقدم، إلا أن النظرة بقيت نفسها لم تتغير، فقد تطورت وصقلت النظرة من الخارج لتلائم عصراً حديثاً، في حين أنها حافظت على المضمون نفسه، الذكر هو الأهم، ودماءؤه ودماء أبنائه من دماء العائلة، ومحبتهم أعلى شأنًا من محبة الأحفاد من أصول أجنبية (بمعنى من رحم الفتاة لا الفتى).

وهذا ما يحيرني؟ ...، أليس من الأجدى أن تحب الجدة أحفادها من بناتها مقارنة بأحفادها من أبنائها الذكور، فأطفال أبنائها الذكور ولدوا من رحم غريب، رحم لم تشهد على طفولته ولا على نشأته ولا على تربيته، وربما حتى لم تشهد على هذا الارتباط منذ البداية، وأجبرت على قبوله جبراً، في حين أنّ الأطفال الذين سكنوا رحم ابنتها، سكنوا رحماً تعبت عليه وسهرت الليالي لينمو ويكبر أمام ناظريها، رحماً تعلمه جيداً.

لذا فوجود سامي كان عبئاً إضافياً عليّ، وكان سبباً في نكوصي، فقد بتُّ أشبه ما أكون بالرضع في تصرفاتهم، أرغب في وضع إبهامي في فمي، وأرغب في المصاصة " اللهاية " وهي شبيهة كثيراً بصدر الأم وإن كانت صورة مصغرة عنه، فهي دائرية الشكل ولها قطعة دائرية أيضاً في وسطها .

والأنكى من هذا وذلك، أنني بدأت أبلل فراشي كل يوم وكل ليل صباحاً ومساءً، فاستاءت مني والدتي كثيراً، وأصبحت حسرتها، تتحسر عليّ كلما أررتي، وكانني أؤكد لها عدم صلاحيتها لدور الأمومة، رغم أنها أنجبت قلبي اثنتين، رعتهما جيداً، وكانتا بصحة

جيدة وفتاتين رائعتين بنظرها، فالكبرى تدعى " سارة " جميلة وحسناء الطلعة، تبهر الأنظار أينما ذهبت، وكان الله سبحانه وهبها الجمال ليكون ميزتها وهوايتها، لتجعل كل من يراها يحبها، بحركاتها ورقصاتها وغنجها، فلا ترى شخصاً إلا وتحاول ملاطفته والتحبيب إليه حتى يحبها أكثر من أطفاله، ربما رغبة دفينية في جعلهم يتحسرون على أنهم لم ينجبوا مثلها ولن ينجبوا شبيهاً لها، كانت ذو بشرة بيضاء، بوجه مدور، وخدود ممتلئة، وحوajib رفيعة، وشعر أسود فاحم طويل، وعينين زيتونتين واسعتين، وفم مكنتز وابتسامة جميلة، وجسد ممتلي، ويضاف على ذلك ما ملئ به رأسها بأنها أجمل الجميلات وأنها ستغدو أجمل فتاة حين تكبر، وهذا ما جعلها مغرورة أكثر بجمالها.

في حين كانت تصغرها بسنة " فرح " مختلفة عنها في كثير من الصفات والسمات، هادئة فرحة كما اسمها، تغني أجمل الألحان، منذ صغرها حت قبل أن تحسن النطق، تحب اللعب لوحدها، ولا تزعج أحداً، تعلمت منذ ولادتها أن الجميع يفضلون أختها الأكبر عليها كونها الأكثر حسناً، قبلت بهذا واقتنعت به لدرجة أنها اقتنعت بأنها أشبع فتاة، وأنه يحق للآخرين ألا يودونها أو يحبونها، فهي كانت ذو بشرة سمراء قاتمة وعينين بنيتين شديدي القتامة، وفم كبير واسع وأنف كبير بارز وشعر قليل بني قصير، وجسد نحيل وهزيل، فكانت أشبه بالصبي، ورضاها بأنها مختلفة عن أختها لم يجعلها حاقدة أو ناقمة، وإنما اتخذت لحياتها مساراً آخر بسكينتها وهدوئها وانعزالها، لتصبر نفسها على من حولها، وربما بهدوئها واتزانها تلقى بعض الود من الآخرين، فتستكين لهذه اللقطة اللطيفة وتستأنس بها، وان كانت مزيفة.

وكونهما تكبراني عمراً، فسارة تكبرني بخمس سنوات، وفرح تكبرني بأربع سنوات، لم تشعرا بالغيرة من سامي مثلي أنا، بل كانتا تعدّانه لعبتهما المفضلة، أهداها لهما والدينا، فتسرعان للاهتمام به ومعانفته

ومداعبته، كلُّ منهما على طريقتها الخاصة، فسارة تعامله كأنه ملكيتها، يحق لها أن تتصرف معه كيفما تشاء، فقد اعتادت تلبية أوامرها، لدرجة أنها ترى أنّ كل ما يخص من حولها يخصها، ويحق لها أن تأخذه في أو وقت، دون استئذان، أمّا فرح فعلى خلافها تهتم بسامي وتغمره بالحنان والحب وبكل ما حرمت منه وما كان ينقصها، فتغدق عليه من أمومتها المبكرة الطاهرة، لتعوّض نفسها من خلاله ما حرمت منه من حب ودفء واهتمام.

أمّا أنا فلم أكن مثلها يوماً، كنت أحسب أخي عدوي اللدود الذي احتل حضناً يميني، اغتصب قلعتي الحصينة، من عرّاني وطرّدي من منزلي، لأكون لقمة سائغة لمن حولي، كنت أراه السارق، الظالم، مبعوث خفي يرغب أن يأخذني من والدتي، لأضيع وأتوه، فكان لزاماً عليّ الدفاع، لم أستسلم يوماً، عاهدت نفسي أن أبقى، فاتخذت معه كافة الوسائل والطرق، والغاية تبرر الوسيلة، غايتي كانت حماية نفسي فقط، لذلك بتُّ أتحيل الفرص لإيذائه، أجرّه على الأرض الاسمنتية المليئة بالحجارة والتراب، بحجة أنه يبكي ويريد أن يرضع، أو أضربه، أو أقرصه، أو أشغل أمي عنه، إمّا بتنظيفي، أو بإطعامي ... إلخ.

وحينما أراه يرضع من ثدي والدتي، أكاد أجن، فأنا التي لم ترضع يوماً من ثديها، أحنُّ إليه، وكثيراً ما أتساءل ما طعم هذا السائل الشفاف الأبيض الذي ينهمر كنهج جارف ليسقط في فم أخي؟، كنتُ أحسده وأتمنى أن أكون مكانه، وهذا ما دفع بوالدتي لتعوضني عنه بمصاصة، مصاصة صفراء جميلة ومنتفخة شبيهة بصدرها كما أخبرتك سابقاً، اتحدت معها وباتت كظلي وصديقتي تراقبني أينما ذهبت، حتى وأنا نائمة لا تفارقني، أتلذذ بها وأتخيلها وهي تغدق عليّ من سائلها اللزج الشهوي، فأخرجها من فمي ومن ثم أعيدها، لأتأكد أنّها

مازالت في فمي، وأكرر ذلك مرات عديدة، وفي كل مرة أشعر بلذة مختلفة وبقوة كبيرة، وأشعر بشبع بعد جوع طويل.

وفي يوم من الأيام استيقظت ليلاً من فراشي، فلم أجد لها في فمي، فصرخت وبكيت، فكيف هجرتني وتركتني وحيدة وأنا بحاجة ماسة لها، وملاً صراخي الغرفة، فاستيقظ الجميع، وبدأت عملية البحث الدؤوب عن مصاصتي في جميع أنحاء الغرفة، فوق السرير وأسفله وفي ثيابي وثياب أخوتي وعلى الأرضية وتحت الفراش، لكن دون جدوى، فقد باءت جميع محاولاتنا بالفشل.

شعرت بالمرارة، وعادت إليّ مشاعر القلق والخوف من الضياع مرة أخرى، انهزت، وبتُّ لا أنام، بكاء ووعيل وصراخ رافق دقائق عقارب الساعة، مع كل دقةٍ منها صرخة وتأوه، وضرب بالأقدام على الأرضية، ورمي لكل ما تلامسه يدي من أثاث وأشياء أخرى، وازداد عنفي تجاه أخي، وكأنه هو من أخذها، ليجعلني تعيسة، وليزيد من حنقي وغضبي وكرهي له، أتخيله يستيقظ من نومه ويزحف رويداً ليأتي إليّ، ويسحب صديقتي مني بكل هدوء وبكل صبر، حتى تنجح مهمته ثم يعود ويستأنف نومه، وكأنّ شيئاً لم يكن، وهكذا مرّ الوقت ثقيلًا، يوماً اثر يوم، حتى انهارت قوى والدتي، وأذعنت إليّ واستسلمت وأعادتها إليّ، فقد قامت بتخبئتها ظناً منها أنّها تساعدني وتحميني من حدوث تشوه في أسناني أو فمي، لكنّ اصبراري عليها وبكائي المستمر جعلها تقلق عليّ، أخبرتني أنّها وجدتها في فسحة منزلنا ولم أقتنع بكلامها حينها، لكن رؤية مصاصتي جعلني لا أهتم بشيء.

ازداد تعلقي بمصاصتي حتى كنت أستيقظ من نومي لأتأكد أنّها في فمي ثم أتابع نومي وأنا سعيدة ومرتاحة.

أتأسف اليوم على الأمهات اللواتي يجبرن صغارهن الرضع على وضع المصاصة، رغم رفض الرضيع لها في البداية ومقاومته لها، وخوفه منها كدخيل غريب، إلا أنها تصر على وضعها في فمه، وتكرر محاولاتها في إدخال المصاصة في فمه وهو يتلوى من الألم والخوف حتى تنجح أخيراً في محاولاتها، فإن حاول الصغير بصقها من فمه، تراها تعيدها إليه عنوة بل وربما تصفعه على يده أو قدمه، وهذا يزيدنا شعوراً بالنصر والجبروت أمام ضعف الصغير، ولكنّها بعد فترة من الزمن تراها تندم لسوء ما فعلت وتقرر بنفسها أنّه من الأنسب لرضيعها تركها، ولا تتخذ هذا القرار إلا بعد أن يكون الرضيع قد توحد مع مصاصته ليصييرا كينونة واحدة، فكما قررت اعتياده على المصاصة، قررت أهمية وضرورة هجرانه لها، لا بل حكمت عليه حكماً غوغائياً قاسياً، حكماً استنبطته من نشأتها، من معاناتها وهي طفلة صغيرة، ومن رغبتها إما في الانتقام لطفولتها أو في تعويض حرمانها.

ومنذ ذلك اليوم أبرمت عقداً مع مصاصتي على البقاء معاً مهما كانت الظروف.

ولم تكن حالي أفضل مع أختي اللتان تكبراني بأعوام قليلة، فكنت أبتعد عنهما، أو هما من تبعداني وتقصيانني، لم أهتم، ولم أشأ بتكوين رابطة معهما، وكنت أحدث نفسي أنّهما لا تشبهانني في شيء، ومع هذا أراقبهما من بعيد، كيف تسالكان، ماذا تفعلان، وكيف تلعبان؟، وأحياناً كثيرة كنت أقلد حركاتهما سراً دون أن تعلمان، وأدعي تجاهلها حينما ترياني وتنتظرا باتجاهي.

ولم أدخل معهما في معركة، فلم تشكلا تهديداً لي، فلأدعهما وشأنهما طالما أنّهما لا تتخطان الحدود الحمراء معي، ولا تفكرا حتى في أن

تحتلا قلعتي وحصني.

منذ صغري أشعر بتميزي وباختلافي، وهذا ما تؤكد لي والدتي اليوم،
كانت تقول لي:

" لا تشبهين أخوتك أبداً، لقد عذبتني كثيراً، وفي كثير من الأحيان،
عجرت عن تهدئك، لقد أشعرتني بضعف أمومي."

فهل حقاً أضعفت أمومتك... أم أنها أمومة مزيفة بالنسبة لك تجاهي...

كنت أستشعر من حولي، وأفهم مشاعرهم، وأستنبط أفكارهم، وأستنبط
نواياهم، فلديّ حدس قوي لا يخطئ، وهذا ما كان يدفعني دائماً للابتعاد
عمن حولي والصراخ في وجوههم والرغبة في الاقصاء عنهم.

الانفصال الأول...

- "كانت المدرسة أول حادث اختطاف قانوني في حياتي... أول مرة تتنازل فيها أمي عني لقوانين المجتمع." ذاكرة الجسد" لـ أحلام مستغانمي

- "في ذلك اليوم فهمت أنني يمكن أن أفصل عن أمي إلى الأبد. وكان هذا الفصل كموتٍ آخر." "الغريب" لألبير كامو

- "في ذلك الصباح، أمسكتُ أمي بيدي وذهبت بي إلى مكان كبير فيه كثير من الصبية... تركتني هناك وغادرت، وظننت أن الدنيا قد انتهت." "عزازيل" لـ يوسف زيدان

كبرتُ وبتُّ في سن الذهاب للمدرسة، وهذا كان أكثر حدث مؤلم يومها، كان صدمة لي، عقاباً على سوء لم أقترفه، أو اقصاءً عن والدتي، مع رضاها بذلك.

كانت هي من ذهبت معي في يومي الأول للمدرسة، لتؤكد لي أنها لم تعد ترغب في بقائي بجانبها، لتشعرني بقدرتها على هجري، لتظهر ضعفي أمام جبروتها، فمن أنا لأرفض، حاولت البكاء والصراخ، لكن لم تنفع هذه الأساليب هذه المرة، حاولت الإفلات من يدها الضاغطة على يدي، دون جدوى، قلت لها:
"لا أريد الذهاب، أكره المدرسة."

لكنها لم تذعن لي، أدخلتني من باب ضخم مخيف، لأرى فسحة كبيرة أكبر بكثير من فسحة منزلنا، لا تقارن، لنصعد بضع درجات، ثم تتوقف أمي لتسأل عن شيء ما لم أفهم فحواه، ثم تجرني وتدفعني وراءها لتسأل عن شيء ما لم أفهم فحواه، ثم تجرني وتدفعني وراءها وكأنني

أساق للذبح، كدجاجة لا حيلة لها، وصلنا لمدخل ضيق فيه غرف كثيرة تراصت بجوار بعضها البعض، كتب على كل منها، كتابة أجهلها، كانت أمي تقرأ اللافتة المكتوبة، لنترك الغرفة وتتجه لأخرى، إلى أن وصلنا لغرفة تُعدّ الأكبر مساحة، تحتلها امرأة تجلس على كرسي خلف منضدة كبيرة مربعة، لا تقف لوالدتي حين تراها، بغیضة نوعاً ما، ملامحها قاسية، نبرتها حادة، شعرها قصير أسود، دهشت حين رأيتها لا تضع حجاباً على رأسها كوالدتي، وحدثت نفسي أنها ربما تكون قد نسيت، أو أنها خرجت مسرعةً من منزلها فلم تنتبه لرأسها، نظرت لجسدها فلم أرى غطاءً أسود طويل يغطي جسدها كوالدتي، وإنما كانت تكتفي بارتداء تنورة قصيرة بنية اللون، وكنزة صفراء ذات أكمام قصيرة.

لم أنتبه لكلامها، أو ربما لم أفهم منه شيئاً، لكننا ما إن خرجنا حتى توجهنا لدرجات أخرى، تسلقنا الدرجات صعوداً لنجد مزيداً ومزيداً من الدرجات، إلى أن رأينا مكرراً كبيراً متفرعاً يميناً ويساراً.

فتوجهنا يميناً، نظرت لإصرار أمي المنبعث من نظرات عينيها، لم تكن لتدعني، كانت تضمّر شيئاً داخلها لا أعلم عنه، بثتُ أستنجد أمي أن نعود لمنزلنا، لكنها لم تصغ لي، إلى أن وصلنا لغرفة كتب عليها أرقام، فتساءلت بيني وبين نفسي، يا ترى ما هذه الأرقام ولما على كل غرفة يوجد رقم؟، هل يضعون الأرقام لتشكّل لغزاً؟، أم لتكون دليلاً يهتدي به الآخرون كم فعلت أمي؟.

فما إن وصلنا إلى الغرفة التي رقمت بالرقم (1/1) حتى توقفت والدتي وطرقت الباب، طرقة كثيراً ، وكم تمنيت في داخلي ألا يفتح هذا الباب، فقد كان مرعباً بالنسبة لي، فهناك أصوات كثيرة تأتي خلفه، صرخات، كلمات مختلفة فيما بينها، إلى أن فتح الباب لتطل منه امرأة أخرى، لكنها كانت ترتدي كأني حجاباً يغطي رأسها، وهذا ما أشعرني بالألفة نوعاً ما، لكنها لا ترتدي شيئاً فضفاضاً وطويلاً كوالدتي، وإنما كنزة حمراء قصيرة نوعاً ما، تغطي تنورة تحتها.

تحدثت مع والدتي ومن ثم أمسكت بيدي، وانسحبت أمي تريد الرحيل وأبعدت يدها عني، هذه اليد التي استنجيت على طول الطريق أن تدع يدي ، الآن تستجيب، لكنني الآن كم أتمنى أن تبقى معي، وسارعت للإمساك بيدها، لكنها رفضت وابتعدت عني، بكيت، أمسكت بحواف الباب، وضربت بقدمي الأرض وصرخت، وأخذت أشدّ يدي من بين يدي تلك الشريرة التي تريد خطفي وابعادي عن والدتي، كنت قوية البنية رغم صغر سني، فلم تنجحا كلتاهما والدتي وتلك المرأة الشريرة في ارضاخي للواقع المرير، ولم أترك يد والدتي مهما حاولت، ولقد نجحت فقد أفلتت اليد الغاضبة يدي واستكان صراخها الذي عكفت عليه منذ أن بدأت البكاء، وحينما هدأت هدأت أمي، وتوقفت عن تأنيبي، لكن مع ذلك لم تنجح جميع محاولاتي في مغادرة المكان. فقد أدخلتنا تلك التي كنت أطلق عليها اسم " الشريرة " إلى الداخل وأمرتنا أن نجلس في نهاية غرفة كبيرة تضم كثيراً من الأطفال، فتيان وفتيات، منهم من هم في مثل طولي ومنهم من هم أطول أو أقصر قليلاً، منهم، الأسمر ومنهم الأشقر، ومن الفتيات من اهتمن بتزين شعورهن بشرائط ملونة، ومنهن من اكتفت بوضع رباط بسيط لشعرها.

أخذت أجول ببصري في أرجاء الغرفة، فقد لفت انتباهي وجود الكثير من المقاعد والطاولات الملتصقة ببعضها البعض، والمرتببة ترتيباً متناسقاً على شكل أرتال ثلاثية. وصوراً تزين الحائط، ولافتات وضع عليها حكم وأمثال شعبية.

اتخذنا أنا وأمي موضعنا مثلما أشارت علينا تلك السيدة في آخر مقعد، جلستُ أنا ووالدتي يداً بيد، لأرى وجوه الآخرين من حولي تنظر إليّ ولوالدتي بأعين ملؤها الدهشة، أو بتجاهل أو بخوف أو

لكنني لم أهتم لنظراتهم، فمعي أمي التي تزيد من قوتي، في حين أنهم وحيدون دون أم لهم.

مرّ الوقت وهذه السيدة لا تكف عن الحديث، وكأنها شاشة تلفاز لا تتطفئ، أو صوت يخرج من مذياع عطّل به زر التشغيل، وبذلك لن يتمكن المستمع من الضغط عليه لإطفائه وقت ما يشاء.

كانت هذه السيدة ذات مظهر قوي، ويبدو على محياها الاتزان، وأثناء حديثها كانت تتخذ من السبورة دفترًا لملاحظاتها، ثم رنّ صوت قوي ملأ بدويه الأرجاء، إنّه صوت رنين أخضع السيدة له وجعلها تكف عن الحديث، وتبع هذا الصوت فتح لباب غرفتنا وإشارة لنا من السيدة أنّه علينا الخروج وأنّ ما سمته الدرس قد انتهى، تهافت الطلاب على الخروج مسرعين من الباب يتدافعون ويصرخون، شعرت أنّهم ربما هم مثلي سعداء لأنهم قد غادروا هذه الغرفة وهذه السيدة الشريرة، ثمّ أنت السيدة لنا وتحدثت مع أمي حديثاً عكّر صفوها وجعلها تضطرب، وبعد أن انتهيتا من الحديث خرجنا أنا وأمي من الغرفة وظنننتُ أننا سننتجه لمنزلنا، فهو رغم ما به من علل ونواقص إلا أنّه أفضل من

البقاء هنا.

لكن خاب رجائي وأملي، لأننا لم نخرج من تلك البوابة الضخمة التي دخلنا منها، وإنما أخذنا نتمشى في فسحة كبيرة للغاية لا تشبه فسحة منزلنا اطلاقاً، وكان الأطفال يلعبون فيها ويصرخون ويصيحون ويركضون مسرعين، أعدادهم كانت كبيرة لدرجة أنني لم أستطع أن أحصيها، ربما بالآلاف أو عشرات الألوف أو أكثر بكثير، كانوا في وضعيات مختلفة، فمنهم من يأكل ومنهم من يبكي، ومنهم من يضحك. شعرت بالجوع لرؤيتي لهم، ولم أعلم من أين أتوا بالطعام، فهل هذا المكان يؤمن لهم الطعام، وحدثت نفسي لما لم يعطوني طعاماً مثلهم، إلا أن والدتي أيقظتني من شرودي كعادتها وأخذت تدفعني وتقول لي: "لما أنتِ لستِ مثلهم، هيا اذهبي والعبي معهم"

ولم أفهم قصدها، فمع من ألعب، فأنا مع أختي لا ألعب فكيف مع هؤلاء الغرباء المتطفلين على حياتي، رفضت وامتنعت وأمسكتُ بيدها، فغضبت وهددتني وهي تصرخ: "ستأين وحدك غداً أفهمت دون أن أتى معك."

فقلت بيني وبين نفسي، اصرخي كما يحلو لك، فإنني لن أذعن لك.

انتهى هذا اليوم الثقيل، لأنعم ببعض الراحة والهدوء في المنزل، وأشكر الله أنني عدتُ سالمة، فتناولت طعامي ثم لعبتُ قليلاً وبعدها شعرتُ بالنعاس الشديد فاستلقيتُ على فراشي ونمت، ترافقتي صديقتي العزيزة، والتي رفضت والدتي اصطحابي لها صباحاً إلى ما أسموه المدرسة، وهذا ما زاد من كرهني للمدرسة وخوفي منها، فلم أكن أستطيع أن أضع مصاصتي حينما أذهب إليها.

لكنني مع الأيام ومع رؤية الصغار دون مصاصة، وعلى اعتبار أنني ظن أن الجميع يجب أن يضعوا مصاصة مثلي، وأن أختي هم حالة شاذة، اقتنعت أن المدرسة هي مكان شرير يحرم الأطفال من التلذذ بما هو ممتع ومن التصرف كما يحلو لهم.

في الأيام التالية ليومي الأول في مدرستي، ألبستني أمي ثوباً فضفاضاً بني اللون، يصل طوله لركبتي، وفيه جيبان كبيران على الطرفين السفليين للثوب، وأزرار عديدة، وكانت تجدل لي شعري وتضع له ربطة شعر بسيطة برتقالية اللون، كما وضعت لي أمي فلور (لفحة صغيرة) على رقبتي فيها اللونين الأزرق والبرتقالي وكانت تضم طرفي الفلور بعقدة بنينة كبيرة الحجم أو ما كنا نسميها " الجوزة " ، وبدأت رحلتي كل يوم إلى المدرسة بهذا الثوب مع حقيبة كبيرة أضعها على ظهري وأسير بها مع أختي .

واعتدت روتيني اليومي، الاستيقاظ في وقت محدد للذهاب للمدرسة، والعودة كذلك في وقت محدد، حيث أجد طعام الغداء وقد أعدته أمي لنا، رائحة زكية تنساب من المطبخ، فقد كانت أمي تجيد عمل كل شيء، التنظيف والطبخ وكوي الملابس والاهتمام بي وبأختي، وكانت تفصل لنا الملابس الجميلة من قماش قديم مهترئ، بما يشبه عملية إعادة التدوير، فأبي قريب لنا يغدق علينا من ملابسه المستعملة القديمة التي لا تناسبنا في قياسها بأي حالٍ من الأحوال، كانت أمي تعمل على إعادة صنعها وتغيير مظهرها، وكأنها جديدة ومناسبة لنا، والملابس التي تحصل عليها الطفلة الكبرى ولم تعد تنفعها لأنها باتت أصغر عليها تعطى للأصغر منها وهكذا...

لذا كنتُ في كثير من الأحيان أستخدم ملابس أختي الكبيرتين وهذا ما كان يزعجني كثيراً، فنادراً ما حصلت على قطعة جديدة، أو قطعة تمّ إعادة تدويرها حديثاً، فنحن كعائلة لا نستطيع شراء أي ملابس جديدة من السوق نظراً لفقركنا المتفق.

ولكن مع هذا تبدو الملابس التي تصنعها أمي جديدة وفاتنة، وتظهرنا بمظهرٍ لائقٍ أمام الآخرين، ولولا ذلك لكنا بدوننا كمتسولين أو شحاذين وجب عليهم الصدقة أو الزكاة.

فراتب والدي لا يكفينا ليومين أو ثلاث، جزء منه للإيجار، وجزء آخر لفاتورة الكهرباء والماء، وجزء آخر للطعام، فعمله لم يمكنه من كسبٍ جيد، فقد كان موظفاً في مؤسسة صغيرة للاستهلاك في مكان ناء بدمشق في الأرياف، وهذا كان يتطلب منه تخصيص جزء من راتبه للمواصلات " ذهاباً وإياباً " .

وما تبقى من أيام الشهر كنا نعيش على الدين، حيث يقترض والدي من أصدقائه أو أقربائه أو أقرباء والدتي، وكاننا عالة على الآخرين.

وبذلك كانت حياتنا تقوم على تأمين أهم المتطلبات الأساسية، فلم يستطع والداي شراء ألعاب لنا أو كتب أو قصص أو تسجيلنا في نادي رياضي أو أخذنا في نزهة، وجل ما كان يزعجني هو رؤية كل ما كان ينقصنا وما نحلم به لدى بيوت أقربائنا من ألعاب وملابس وكتب ومال، بعضه مرتب وبعضه مرمي على الأرض.

وأكثر الأشياء التي كانت سبباً في تعاستي هي مكتبتهم الكبيرة المليئة بالكتب والقصص المصورة وغير المصورة المصنوفة والمتراسة بجانب بعضها البعض مؤلفة لوحة فسيفسائية بهية الألوان متربعة في

منتصف الحائط، إلا أنني كلما حاولت الإمساك بأحد الكتب، كانت تأتي خالتي وهي الأخت الكبرى لوالدتي، وتأخذ الكتاب مني وتدفعني للخارج، والغريب أنه لا أحد في منزلهم يحب القراءة، وكثيراً ما تمنيت لو تعطيني جميع هذه الكتب المصورة لأقرأها وأستمع بها، لكن لا سبيل لتحقيق الأمنيات، ربما اعتبرت خالتي هذه الكتب صمديات وتحف للزينة أقرب منها لكتب تقرأ، لذا وجب منع لمسها أو الاقتراب منها.

ومع هذا لم أستسلم أبداً، وكنت أتخير اللحظة المناسبة لأدخل غرفة المكتبة دون أن تراني خالتي أو أي أحد في المنزل، وأغلق الباب على نفسي، وكأنّ عالماً آخر يتراءى لي بين صفحات الكتب، أقلم كل صفحة بعناية وتمعن دون أن أنتبه لما حولي من ضوضاء وضجيج خارج جدران هذه الغرفة، ودون الاهتمام بوجود إنارة في الغرفة، فقط الكلمات التي بين يديّ هي من تستأثر بانتباهي، قرأت جميع قصص ريدي بيرد وجميع قصص سلسلة المكتبة الخضراء، والقصص المصورة الصغيرة، ولكنّ أكثر القصص التي تركت أثراً في ذاكرتي لا يُمحي هو قصة: الليمون العجيب وكانت هذه القصص هي سلواي في وحدتي، وهي أعز صديقاتي، وكم كان يؤلمني لحظة الفراق حين تطلب أمي مني الحضور لتوديع الأقرباء ومغادرة المنزل، تمنيت لو أنّ لي مكتبة تشابهها وأصدقاء يشبهونهم، بل تمنيت لو أنّ هذه المكتبة نفسها تكون لي وحدي، وهذا ما زاد من حنقي وكرهي لصاحبة الدار " خالتي " فماذا تعلم هي عن هذه القصص وعن روعتها وسحرها ورائحتها الجميلة، فلو أنّهم يصنعون عطراً من الورق لكان من أفضل العطور وأكثرها تميزاً ورونقة، وبعد عشرين عاماً وربما ثلاثين تأكّدت أنّ هناك من يرى أن رائحة الكتب شيئاً مقدساً مثلي، وهو كاتب مشهور رواياته كلها كانت تتعلق بالكتب وبالمكتبة العظيمة الخالدة التي لا يمكن لأحد أن يفهمها وأن يطلع بكل أسرارها وهو كارلوس زافون

وسلسلة رواياته الشهيرة ظل الريح ولعبة الملاك وغيرها.

وهذا ما دفعني بشدة لكره فقري ووضعنا الحالي، وعاهدت نفسي أنني حينما أكبر ستكون لي أفضل مكتبة على الإطلاق، وبالرغم من أن حلمي هذا لم يتحقق إلى الآن لوجود عائق يقف في وجه تحقيقه دائماً كلما اقتربت خطوة منه، لكنني ما فتئت أسعى لتحقيقه ولو بقي من عمري يوماً واحداً فقط.

ومنذ ذلك الحين شرعت في قراءة أي شيء يقع بين يدي، مجلة كانت أم كتاب قديم أم قصة مهترئة، لا يهم، المهم أن أعزز خيالاتي وأنميها وأشبع شبعي اللامتناهي، وبدأت بكتابة ما يشبه القصص القصيرة، وقد كانت محاولات بسيطة، لكنني أعتز بها، ومن هذه القصص قصة قصيرة تدعى " مطرودة " و " غراندا مينوس " نسبة إلى بطله القصة، وغيرها من القصص.

أكثر قصصي في تلك الفترة كان محورها الفقر والجوع والألم لأفرغ ما بداخلي من شعور مرير بالتباين في المعيشة بيننا وبين من حولنا من جيران وأصدقاء وأقرباء، فكم عانينا أنا وأسرتي من البرد والمطر والثلج، ونحن نذهب للمدرسة سيراً على الأقدام رغم أنها تبعد مسافة عشر كيلو متر عن منزلنا، أي ما يعادل ثلاثة أرباع الساعة، فلم نكن نملك مالاً لنسجل في حافلة المدرسة ولا أن نركب بالحافلات العامة، فكانت وسيلتنا الوحيدة للوصول إلى المدرسة هي الأقدام، نتكئ عليها ذهاباً وإياباً، مهما كان الفصل صيفاً أم شتاءً أم ربيعاً أم خريفاً، ومهما كان الجو ماطرأً أم مثلجاً حاراً أم دافئاً، شهوراً، ثم سنيناً.

وكان الطريق للمدرسة مهجوراً تغمر شوارعه الرمال والحجارة، مع وجود بعض المعامل الكبيرة المخيفة كمعمل أجهزة الأكسجين التي

توضع للحالات الإسعافية لمن لا يستطيع التنفس، ومعملٌ آخر للسيارات.

ولذا فإنّ صوت صفير الرياح يملأ الأرجاء، وكثير من الأحيان ينتابني الخوف والفرع من أن يتعرض لي أحد ما أو حيوان ما، وخوفي فاق قوتي المتواضعة، لكنني كنتُ أدفع عني هذه المشاعر بإضفاء عنصر الخيال، فأتخيل وكأنّ الأشجار المترامية على طرفي الطريق تمدُّ لي أغصانها كأذرعٍ لحمايتي أو تتمايل فرحة بقلائي فتلقي عليّ الصباح، فتغمرنني السعادة بحنانها وعطفها عليّ، وتذكرني أنّها معي وستحميني من أيّ مكروه، وهكذا كل يوم.

بالرغم من أنني لم أكن فتاةً متفوقة، لكنني كنت مجتهدة، أقضي الكثير من الوقت في الدراسة والمذاكرة ومراجعة دروسي وكتابة وظائفٍ وحفظ كل كلمة قالتها المعلمة لي في الصف، وأكثر ما كان يميزني عن صديقاتي هي موضوعات الإنشاء فغالباً ما حصلت على الدرجة الكاملة، فالكتابة بالنسبة لي وحي والهام، ما إن يطلب مني التعبير عن فكرة ما حتى أكني وأصف وأستعير وأضيف مشاهد حقيقية وخيالية ممزوجة معاً لتشكل في النهاية نصاً ساحراً مملوءاً الحياة.

وما جذبني أكثر وزاد من تعلقي بالمدرسة صديقتي التي باتت كأخت لي وتدعى "آلاء"، كانت لطيفة وهادئة وقليلة الكلام وطيبة النفس ومعدومة المال مثلي، ذات بشرة بيضاء يشوبها بعض النمش على الوجنتين وعينين سوداويتين فاحمتين، وفم صغير وأنف صغير ووجه مدور، ولكنها كانت ضخمة مقارنةً بي، في الطول والوزن، وتسكن منزلاً متواضعاً في بستانٍ يقع خلف مدرستي، كنتُ نشبه بعضنا في كثير من الأمور أو أنّها كانت تكمل ما بي من نقص، فأنا كثيرة الكلام نشيطة لا أحب الهدوء كثيرة الحركة وهي لديها ربما كل ما كنت أتمناه

من هدوء ورزانة وصبر.
وكلتانا لم تكن تستطيع شراء طعام من بوفيه المدرسة، لذا كُنَّا نحضر
سندويشاً معنا من المنزل، ونضع بها ما كان لدينا من لبن زبادي أو
أي شيءٍ آخر، وربما أكثر ما اشترَكنا واتفقنا عليه هو عدم محبتنا
لحصة الرياضة، حيثُ لم يكن بمقدورنا شراء بجامة أو حذاء رياضة،
ولذا نضطر لممارسة الرياضة بملابسنا الخاصة بالمدرسة مع سماع
تأنيب ولوم من المدرّسة وتحذير بأنّه يتوجب علينا إحضار ملابس
خاصة بالرياضة، وهذا ما دفعنا في كثير من الأحيان لتجنب العقاب،
واحضار بجامة قديمة وحذاء بالي من المنزل لهذه الحصة المملة،
فكنت أشعر تجاهها بأنّها كمن تعزّيني وتظهرني المتسولة أمام
زميلاتي وزملائي في الصف، على اعتبار أنّ مدرستي كانت مختلطة
فيها الذكور والإناث.

وقد بلغ عدد التلاميذ في صفي حوالي الأربعون تقريباً، كُنَّا نوزع على
المقاعد إمّا فتاة تجلس بين صبيين أو صبي يجلس بين فتاتين، وفقاً
لقانون المعلمة الخاص " فرق تسود."
وهكذا جلست أنا مع صديقتي آلاء وجلس بيننا طفل يدعى " عبد الله "
والذي علمت فيما بعد أنّه ابن المعلمة المدلل، وذلك بعد حادثة وقعت
له وكنْتُ أنا سبباً رئيسياً في حدوثها، فذات يوم أوقعته بوضع قدمي
بين قدميه حينما أراد الخروج إلى السبورة بعد أن طرحت علينا الأنسة
سؤال، وأخرجته هو رغم أنّه لم يكن يرفع يده، إلا أنّها دائماً تخرجه
هو فقط دون سواه مهما أَلحينا عليها بطلب الخروج والإجابة على
السؤال، لذلك عندما أراد أن يبعثني ليخرج أوقعته فسقط أرضاً وبدأ
بالبكاء، مع أنّها لم تكن سقطت قوية إلا أنّه ادّعى الألم، فجاءت المعلمة
وصفعتني على وجهي المأ جمع آلام الدنيا كلها في يدها لتسقط على
وجهي ويحتضنها خذي ثم قلبي ثم كياني فشخصيتي، صفة كانت من
القوة ما جعلتني أرتدُّ إلى الخلف، صفة كانت كافية لتجعلني مشوهة

مذلولة، مكسورة ، خجولة، قلتُ لها:
"أنني أوقعتُه أرضاً لأنني رفعت يدي كثيراً ولم تخرجيني، في حين
أنك أخرجت عبد الله عدة مرات في الحصة الواحدة"

لكنّ حديثي لم يرق لها، وكذلك حديثها لم يرق لي، ولم أفهم سر
تمييزها لعبد الله على غيره إلى أن نادته " ماما فيك شي "

تفاجأت كثيراً وكانّ صفة أخرى قد دوت على خدي الآخر، كم تألمتُ
ذلك اليوم، حيثُ صفتُ إرضاءً لغيظها وخوفها على ابنها لا للفعل
الذي قمتُ به، وهذا ما زاد من مشاعر الخوف والقلق لديّ . لم تكن
هذه الصفة الوحيدة، فخلال مسيرتي الدراسية انهالت عليّ الصفعات
منها من كان ملموساً ومنها خفياً، وفي الحالتين ازدت تشوهاً.

أشعر بالراحة اليوم لأنّ قرار " إلغاء الضرب في المدارس نهائياً" قد
بات معمولاً به بشكلٍ فعلي في مدارسنا، فليس من حق أي معلم أو
معلمة ضرب طفل أو طفلة، فهم لا يعلمون ما أثر هذه الضربة لاحقاً
في شخصية الطفل ومستقبله، حيثُ تترك جراحاً لا تندمل.

ولو ينصني القدر لألتقي مجدداً بمن رمى بي بصفة، لأردّها له آلاف
الصفعات، ولأنهال عليه بأقذر الشتائم لا لشيء سوى لتحقيق العدالة،
ولن تتحقق ولو بألف صفة وصفة، فصفة الطفولة شوهتني أمّا
صفعاتي لكم اليوم فلن تترك أثراً وربما حتى لن تشعروا بها، بجسدكم
الهزيل ونفسيكم الواهنة وأحلامكم الضعيفة.

في ذلك اليوم فكرت أنني لن أعود مجدداً للمدرسة، لكنني لم أستطيع،

فصديقتي هناك، وقد تألفت قلوبنا معاً وكأننا خلقنا من رحمٍ واحد، أحببتُ الحديث معها واخبارها عن عائلتي، منزلي، أقربائي، جيراني، والحي الذي أقطنه وما يدور فيه من مشكلات وصراعات ومشاجرات قد تصل لرفع الأسلحة بوجه الآخر والتهديد بالقتل والحلفان بإنهاء حياة الخصم، ثم لا يحدث شيء من هذا التهديد والوعيد.

وهي بدورها كانت تخبرني عن عائلتها وأختها الصغيرة " ندى " وابن عمها " جلال "، وعن ارتباطها به منذ الولادة، حيث تعاهد والدها مع أخيه والد " جلال " على زواج الصغيرين " آلاء وجلال " حينما يكبران وقد قرأ الفتحة على ذلك، وأنه مهما حدث فلن يتزوج أحدهما إلا من الآخر ودون أن يستشيرا أحد كوالدة كل منهما، ودون حتى أن ينتظرا ليسألا صاحبي العلاقة إن رغبا في هذا الزواج مستقبلاً، وكأنّ صديقتي من الأشياء التي تعود ملكيتها لأبيها كأى قطعة أثاث، يحق لوالدها ما لا يحق لها أو لغيرها فيما يتعلق بالتصرف بشؤونها متى يشاء وكيف يشاء.

لم آخذ بكلامها في ذلك الوقت، وظننتُ أنّها تبالغ في الحديث عن زواجها من ابن عمها إلى أن تركت المدرسة لاحقاً بعد ست سنوات معاً وهي في الثانية عشرة لتتزوج رغماً عنها بابن عمها ولتصبح أمّاً وهي في الثالثة عشرة فقط، كان ذلك اليوم صدمة قوية بالنسبة لي، فقد فارقتني من اعتبرتها أقرب إليّ من أختي، من حسبتها السند واليد الحنونة حينما أقع

والموجه حينما أخطئ وشريك الفرح والحزن، وقد شعرتُ بضعفها وعدم محبتها لي حينما فارقتني وتخلت عني، ورمت بصداقتنا الطويلة نوعاً ما في بئر عميق لا يُرى له قعر، ومنذ ذلك الحين فقدت الصداقة معناها بالنسبة لي، وفقد الصديق قيمته وأهميته، بل وحتى الكلمة نفسها " الصداقة " اعتبرتها أكنوبة واستبدلتها بـ " مصادفة " بمعنى صدفة

يلتقي فيها شخصان فيتعارفان ويتكلمان، ثم لا بدّ للصدفة من أن تنتهي فيفتقران.

ولذا لم أهتم بعد صديقتي آلاء بتكوين أصدقاءٍ جدد على الإطلاق، لدرجة أنني من أتعرف عليهم في إحدى سنواتي الدراسية أكره وجودهم في السنة التالية وأعدّه عقاباً لي حينما أراهم مجدداً معي في نفس الصف.

لم أرسب في أي صف دراسي خلال مرحلة الدراسة في المدرسة الابتدائية، وكنتُ أنال الدرجات المتوسطة في بعض المواد وأحياناً درجات كاملة في مواد أخرى، ولم أنفك عن مقارنة نفسي بالأخريات في لباسهم وتصرفاتهم وحقائبهم المدرسية الكبيرة الحجم والملينة بالألوان الزاهية والرسومات الكرتونية الجميلة، وعلبهم الهندسية المميزة.

إلا أنّ والدتي كثيراً ما كررت على مساعي كلمة "مظاهر" كانت دائماً تقول لي: إنها مظاهر يا أمينة .

فأستمع لها وأؤمن بكلامها، وأقتنع أنّ المظهر ليس مهماً، المهم ما نحن عليه وما سنكون عليه مستقبلاً، وألا يظهر الفرد بشيء عكس شخصيته ومبادئه، وهذا ما شدّ من أزرّي وجعلني لا أقف أمام كل هذه الأمور والنواقص في حياتي، وبذلك كنتُ أعوض حرمانني بفتحي لدفتر جديد من بين بعض الدفاتر الجديدة التي يحضرها لنا قريب غني بعض الشيء يرغب في تزكية أمواله، فيرانا العائلة الأنسب لغايته، وهذه الهدية كنتنا نتلقاها كل سنة تقريباً مع كل عام دراسي جديد.

حيثُ يأتي إلينا هذا القريب الغني محمّل ببعض الأقلام والدفاتر

الجديدة، وربما لولا صدقة هذا القريب الغني لما كنا استطعنا متابعة دراستنا والوصول لما وصلنا إليه اليوم، كانت هذه الصدقة بمثابة يد الله الحانية علينا في الأرض والتي لم تتركنا أبداً في أي وقت من الأوقات، فله الحمد على كل شيء.

كانت فرحتي عظيمة بهذه الدفاتر، فكنت أخذ إحداهما وأفتحها وأشمها من كل قلبي، أشم رائحتها وأستنشق عبيرها وأحضنها وأغرسها ما بين جوانحي لأشعر بالدفء والأمل.

وتتالت الأيام، وتتالت الشهور والسنين، ومهما حاول المرء تذكر ما مرَّ به بالتفصيل وبدقة، فإنه لن يتمكن من ذلك، فالأشياء التي نتذكرها هي فقط التي تترك فينا أثراً لا يُمحى سواءً بالفرح أو بالحزن.

نحجثُ بالصف الأول، بعلامات جيدة دون أي تفوق أو مرتبة، وانتقلت إلى الصف الثاني، كانت أنستي اسمها " سمر " رقيقة وطيبة وحنونة أحببتي كثيراً ، وجعلتني أحب المدرسة وأتعلق بها، وهذا جعلني أدرس وأجتهد لأنال مكانة مميزة لديها، فكانت مرتبتي الأولى على الصف وكنت مثال الطالبة المؤدبة والمجتهدة والمثابرة، وتلاه الصف الثالث مع تغيير جديد للأنسة، كانت أنستي الجديدة تدعى " سميرة " ربما يمكن أن أدعوها شخص بلا مشاعر، فهي لا تجيد التعبير عن مشاعرها فلا يمكننا استشفاف إن كانت راضية عن مستوانا كطلاب أو إن كانت منزعة، ولا حتى يمكنها أن تفضل طالباً من بيننا، فبالنسبة لها تعتبرنا جميعاً مهنة فرضت عليها تأديتها، وهذا كل شيء، إلا أن رغبتي في التميز والتفوق لم تتلاشى في هذه المرحلة بل اشتعلت حماستي لأبقى محافظة على مرتبتي وإن لم تهتم الأنسة لها، فشعوري بأنّ هذا سيسعد أنستي السابقة " سمر " كان كافياً لييقيني على المستوى نفسه من الاجتهاد.

وانتقلتُ إلى الصف الرابع مع أنسة غريبة الطباع وغريبة الحديث، تدعى " نبيلة " كانت بدينة وشعرها أسود قصير وبشرتها حنطية نوعاً ما ووجها مستدير كقرص الخبز، وعيناها صغيرتان وسوداوان تملؤهما القسوة، وذات صدر بارز كبير، أمّا مؤخرتها فكانت كبيرة الحجم، ومع هذا كانت دائماً ترتدي تنورة سوداء قصيرة ضيقة بحيث تظهر مؤخرتها تماماً وقميصاً أبيضاً شفافاً، ولم تكن اسماً على مسمى، فلا هي نبيلة في مشاعرها ولا في تصرفاتها وخاصةً معنا نحن الطلاب، أمّا كلماتها فكانت سوقية وإن غضبت من طالب أو طالبة قذفته بشتى الكلمات النابية ولعنته وشتتت والدته ووالده بأقذر ما يمكن أن يخطر على بالها من مصطلحات يمكن وصفها بأنها استوحتها من الشارع، فمرة كانت تشرح لنا درساً في العلوم وخلال الحصّة ألقى طالب بمزحة أضحكنا جميعاً، هنا اشتعلت الأنسة غضباً ورمته بأقسى وأقذر ما لديها من كلمات ووصفته بشتى أنواع الحيوانات من حمار لكلب ... إلخ.

كانت فترة دراستي في الصف الرابع مميزة، فقد برزت في الأدب وفي حصص القصة والإنشاء واللغة العربية، وأثناء تصحيح الأنسة نبيلة لورقتي الامتحانية في اللغة العربية، فمن عاداتها دائماً أن تصحح الأوراق أمامنا لترينا أخطاءنا ولتشتتنا في نفس الوقت، نادنتي الأنسة نبيلة

لأخرج إليها وهي ماتزال ممسكة بورقتي، كنتُ خائفة قليلاً منها، ولكنن رأيتُ ابتسامتها وهي تريني ورقتي وتقول لي:
" لقد قرأت موضوع الإنشاء الذي كتبته، كان رائعاً ومميزاً، أعرف أنك تكتبين بشكل جميل، لكنك هذه المرة أجدت الوصف والتعبير، أحسنت يا صغيرتي. "

شعرت بالسعادة حينها، فهذه أول مرة أراها تمدحُ أحداً وتتفوه بمثل هذه الكلمات الرقيقة، وهذا شجعتني على الاستمرار في الكتابة.

كما تخللت سنتي الدراسية هذه بعض المغامرات، حيث احترق صفي، وذلك في يومِ قارس، كانت الأمطار تنهمر بغزارة خارج نوافذ صفنا والرياح تصفر بأرجاء المدرسة وتلطم جدرانها وأركانها، لذا تجمعنا حول مدفأة صفنا، كانت مدفأة صغيرة الحجم سوداء متسخة وشديدة القدم، تقبع أمام باب غرفة الصف، مستندة إلى جدار الصف، لم تكن ذات نفع كبير، ولذا لكي ندفي أنفسنا كنا نضطر لمعانقتها حتى ننسى البرد، فتدافعنا أنا وأصدقائي أمامها مستغلين غياب الأنسة عنا فترة من الوقت وذهابها لغرفة المديرية، إلى أن رمينا المدفأة أرضاً، فاشتعلت النيران في كل مكان، وأخذ الرعب منا كل مأخذ، وتعالق صرختنا مستغيثة مع ثوران النيران من حولنا، وأسرعت المعلمات والموجهات والمديرة ليروا سر هذا الصراخ، كما تدافع باقي الطلاب من الصفوف الأخرى، واستطاعوا بفضل الله اخراجنا من بين النيران التي أحاطت بنا وبباب غرفتنا، ونجونا بأعجوبة كبيرة، والحمد لله أنه لم يصب أيُّ منا بتشوه أو حروق، إلا أن هذا الحريق أعاد لي ذكرى حريق آخر حدث لي في صغري حينما كنتُ في الرابعة من عمري، كنتُ في المنزل بجوار المطبخ وكانت أُمي تضع قدراً مليئاً بالماء على " البابور" وهو موقد صغير يعمل على الكاز، فجلستُ بجوار القدر، أنعم بالدفع، وأراقب تموجات الماء وتبدل حالها بفعل النار والفقاقيع المتطايرة والبخار المتصاعد، فشردتُ واصطدمت يدي بالقدر، فسكب ما به من ماء شديدة السخونة على جسدي، لأحترق في بطني وفخذي وقدمي، أسرعت والدتي بإسعافي إلى جمعية خيرية قريبة من منزلنا، فدهنوا جسدي بمراهم ولفوه بالشاش الطبي وأعطوا والدتي بعض الأدوية لأتناولها، إلا أن هذا الحريق أراد ترك وديعة لي لأذكره دائماً مشكلاً ما يشبه الخريطة في أعلى فخذي، بسبب النتوءات اللحمية

والتكتلات الجلدية والانتفاخ الذي سببه في جلدي، وكذلك خطأ أسود متقطع مع بعض النقاط السوداء المنتشرة من حوله، كسوار حول بطني منطقة فوق الصرة وكذلك خلخال حول قدمي اليسرى، لذا لم أتمنى أن تعاد التجربة ثانية.

وأذكر كذلك حادثة أخرى برزت في السنة نفسها، كان يوماً ربيعياً وقد حان وقت انصرافنا من المدرسة، واذ بي أسمع صرخات وعويل من أطفال فتيان وفتيات يصرخون ويصيحون وهم يقفون أمام باب المدرسة لا يتحركون، تغطي وجوههم أقنعة من الرعب والخوف، لم أفهم ما بهم، فجلاً ما أعلمه أنّ وقت مغادرتنا للمدرسة بمثابة عيدٍ لنا، ما إن تنتهي حصصنا الست حتى نسارع لنضع كتبنا في حقائبنا ونغادر مسرعين هذا الباب الحديدي الضخم الذي يشكل باب مدرستنا، لكنني في ذلك الوقت رأيت الأطفال غير راغبين في مغادرة المدرسة.

حاولتُ المرور من بين جموع الأطفال لأرى ما كان يمنعهم من الخروج، وتلقيت بمحاولتي هذه العديد من الصفعات والضربات على كتفي وعلى يدي، حتى استطعتُ الوصول، وكم كانت دهشتي كبيرة حينما رأيت رجلاً أشعث أغبر يجلس على الأرض وينبح كالكلاب، شعره يغطي أذنيه، ويديه مليئتين بالأتربة والأوساخ، وعليها آثار لجروح وكدمات حديثة العهد، وكلما رأى طفلاً ينقض عليه محاولاً عضه، كان منظرًا مقززاً، وقد أخبرتنا الأنسات حينما أتتني أنّه قد تعرّض ربما لعضة كلب شارذ مستكلب، ومن يومها ازداد خوفي من الكلاب، خوفاً من أن ألقى المصير نفسه.

وازدادت شراسة هذا الرجل المستكلب مع كل حجرة صغيرة يرشقه بها أحد من الطلاب من حولي، وازداد معه صراخنا إلى أن اتصلت حضرة المديرية بالمختصين وأتوا لمساعدتنا وحمل هذا الرجل الكريه

بعيداً عنّا.

ربما ليس له ذنب ولكنه مخيف، وأصبح يشكل خطراً على الآخرين،
وكم تمنيت لو أعرف ما المصير الذي سيلقاه.

وظل هذا الرجل حديثنا لفترة طويلة من الزمن، نفتح به أحاديثنا
ونودع به أصدقاءنا.

وربما لموقع مدرستنا دور رئيسي في جذب مثل هذا الرجل المشوّه
إلينا، فهي تحتل منطقة نائية عن كل من حولها، ويحيط بها البساتين
والأشجار والمساحات الخضراء من كافة أرجائها، ولا يجاورها سوى
دار للعجزة، كنت أسميه دار للأموات، فلا صوت إلا صوت الريح
تجوب ممراته، وكأنّه زنزانة للسجناء لا يدخلها ولا يخرج منها أحد،
وكثيراً ما تخيلتهم وأنا أراقب الدار من نافذة صفى المطلة عليهم
يعذبون ويضربون دون أن يعلم بأمرهم أحد، أتخيل صراخهم المكبوت
والمهم المحبوس، عقاب يجر عقاب لفعل هم لم يقترفونه حتى لا
يعلمون ما هو هذا الفعل الذي استحقوا به هذا العقاب الشنيع، ربما هو
عقاب لوصلهم لمرحلة أرذل العمر وتربيتهم لأبناء قساة القلوب
بصقوا في وجوههم، وتناسوا التعب والألم والخوف والفرح المصاحب
لهم في كل مرحلة من مراحل عمرهم حتى أصبحوا ما هم عليه الآن
رجالاً ونساءً آباءً وأمّهات، وليجازوا والديهم برميهم تلك الرمية
المذّلة، وتخيلت نفسي حين أكبر نزيلة هذه الدار التعيسة، ففزع من
هذا التخيل وانتابني الحزن على قاطنين هذا الدار.

وكذلك يحيط بمدرستنا نهر عميق يمرّ بالبستان المقابل للمدرسة، لونه
مائل للسواد ورائحته كريهة، من شدة القاذورات المرمية فيه، وكنا
نلقى تحذيرات واندازات مستمرة من قبل المعلمات بعدم الاقتراب منه،

مع التهديد بالطرد من المدرسة إن فعلنا هذا، لكي لا نلقى المصير نفسه الذي لاقاه طفل صغير سقط فيه، فيلقون باللوم على الصغار مع أنهم المسؤولين المباشرين عن غرقه، لأنه كان يفترض بهم ردم النهر قبل إنشاء هذه المدرسة، فلا أحد يستطيع منع كف القدر من الضرب.

لا أذكر هذه الحادثة، فقد حدثت قبل تسجيلي في المدرسة، لكنني أذكر جيداً حادثة اغتصاب طالبة صغيرة في البستان الذي يقع خلف مدرستنا، حيث خرجت الطفلة قبل انتهاء الدوام الرسمي فأمسك بها أحد الرجال المشوهين عقلاً لا جسداً وجرها مكبلاً فمها إلى البستان ليستقر بين الأشجار ويجردها من ملابسها عنوة ويتلذذ بكل مكان في جسدها وبكل جزء وانحاء ثم يقتلها ويرميها أمام مدرستنا، ليمحي بذلك خطيئته ودليل نجاسته وغدره، لم يستطيعوا الإمساك به مثل كثيرين غيره.

هذه القصة الرهيبة زلزلت علاقتي بالمدرسة وزادت من خوفي منها وخوفي على صديقتي الوحيدة آلاء التي كانت تضطر للمرور به يومياً للوصول لمنزلها، يرافقها أختها الصغيرة وابن عمها.

ومع الأيام تُنسى المصائب والأحزان، كما نسيت تلك الطفلة الصغيرة، ولم يعد أحد يذكرها أو يسرد قصتها، وكأنها مشهد من مسلسل، لا واقع في الحياة.

واصلتُ اجتهادي ومواظبتي، إلى أن تجلّت محاولاتي الدؤوبة في الدراسة، باعتراف آخر من معلمة أخرى في الصف الخامس بقدرتي الرهيبة على حفظ ما في صفحات الكتاب من كلمات وأرقام وحتى جهة الصفحة ورقمها، لدرجة أنها أعدت لنا اختباراً في مادة العلوم ووضعتني لوحدي على طاولتها لأملي الاختبار أمامها، في حين أن

بأقي زملائي وزميلاتي يجلسون في مقاعدهم المعتادة، أنهيت الاختبار وأعطيت ورقة الإجابة لمعلمتي، وحين قرأته قالت لي:

"بسرعة أحضر لي الكتاب الذي كنت تستندين عليه في الإجابة"

ظناً منها أنه كتاب العلوم وأنني قد استرقت النظر إليه أثناء تأدية للاختبار، أحضرتُ لها الكتاب وكان كتاباً في الاجتماعيات، وهنا دهشت المعلمة وأكدت لي أنني بارعة ولديّ ميزة رهيبة في حفظ الكلمات والنصوص ومواقعها وكأنتي أصورها في عقلي وأنسخ منها صوراً أخرى على ورقة الامتحان، ولم تكتفِ المعلمة بذلك بل ذهبت وأحضرت صديقاتها من المعلمات في الصفوف المجاورة وأرتهم وورقتي وأكدت لهم موهبتي وكأنتها بذلك تثبت لهم دورها الفعّال في تعليمي وفضلها الكبير في ثقل موهبتي.

شعرت وقتها بتميزي، فأنا دوناً عن الآخرين تمتدحني المعلمة وتثني عليّ ، دمعت عيني ونظرت من النافذة كي لا يراني أحد من أصدقائي، كانت حينها السماء ملبدة بالغيوم وداكنة والجو ماطر، وكان ذلك اليوم ذكرى خالدة لا تنسى لدي، ذكرى يوم شتوي في كانون الأول، وكانت الساعة في ذلك اليوم تقترب من الرابعة ، ففترة دوامنا كانت الظهيرة.

ففي مدرستي فترتي دوام، صباحية ومسائية، الفترة الصباحية تبدأ من الساعة السابعة والنصف وتنتهي في الثانية عشرة ونصف، وتُكنى المدرسة باسم آخر حيثُ تدعى " زيد بن حارثة" أمّا فترة الظهيرة فتبدأ من الساعة الواحدة حتى الساعة الرابعة والنصف وتُعرف مدرستنا في هذه الفترة باسم " عبد القادر الخرساء ."

ذلك اليوم كان محطة جميلة في حياتي، لا أنساه ما حييت، فقد جعلتني

المعلمة أشارك في رواد الطلائع، في قسم الأدب، وبالرغم من أنني لم أبلّي حسناً، لكنني سعدت لمجرد المشاركة في حدث جليل له أهميته في مدرستنا، لا بل في المدارس جميعها، وربما فشلي يعود لقص والدتي لشعري الطويل الذي يصل لأسفل ظهري، فقد أغضبتنا حينما أمسكت يدها ومنعتها من تسريح شعري لشدة ما أمتني قبل ذهابي للمدرسة، فعاقبتني بذلك.

ولم أشارك مرة أخرى في رواد الطلائع، ربما بسبب أنّ المعلمة فقدت اهتمامها بي، أو شعرت بعدم موهبتي وبأنّ خيالها هو من أوحى لها أساساً بهذه الموهبة، فعدت من جديد الطالبة المواظبة على دراستها دون أي شيء يميزني.

إلى أن جاء يوم عدت فيه من المدرسة وذلك حين كنت في الصف السادس برفقة أخي الصغير، وفي أثناء عودتنا شعرت بإرهاق شديد اجتاحني، قطع أوصالي ومفاصلي، فجلست على الرصيف وشعرت بالغثيان والرغبة في الإقياء، وطلبت من أخي أن ينتظر معي لأستعيد عافيتي قبل أن نواصل سيرنا، كم شعرت يومها بأنّ الطريق طويل، وأجبرت نفسي على الاستمرار في السير ومع كل خطوة كنت أتمزق ألماً وتعباً، إلى أن وصلنا البيت فأحضرت لي أمي سريعاً شيئاً مالحاً أتناوله ظناً منها أنّ لدي هبوط في ضغط الدم ممّا سبب لي الدوار والتعب، لكنها زادت من حالتي سوءاً، فقد أفرغت أمعائي من كل ما تحتويه من طعام منذ الصباح، ثم أخبرتها برغبتي في النوم، واستغرقت في النوم لمدة ثلاث أو أربع ساعات كاملة، وحين استيقظت ازدادت شكواي من ألم في الرأس والمعدة وغثيان وإقياء وشعور بالتعب والارهاق العام، مع تحول لون بولي للون الأحمر، وهذا ما أفرغ والدتي ودفعها لاصطحابي لطبيب أطفال، وأخبرها بإصابتي بفيروس الكبد ولكنّه أخف أنواع الفيروسات التي تصيب الكبد،

وأعطاني وصفة طبية فيها الكثير من الأدوية ونصحني بالكثير من الحلويات وأعدّ لي تقريراً طبياً لأستطيع من خلاله البقاء في المنزل لمدة شهر، وأمتنع عن الذهاب للمدرسة، على اعتبار أنّه مرض معدي وينتقل بسرعة للأطفال الآخرين. وهكذا تغيّبتُ عن مدرستي لمدة شهر كامل، أقضي نهاري بتناول السكاكر والحلوى التي يستطيع والداي توفيرها لي، بالإضافة إلى البيض المسلوق، ثمّ أشاهد التلفاز بقنواته المحدودة الرسمية، فالرسيفر وأجهزة السطلايات لم تصل لبيتنا بعد، وكنا بعيدين جداً عن أي عنصر من عناصر التطور والتقدم، ورغم قلت القنوات إلّا أن ما كان يعرض عليهما يجذبني ويشدّ انتباهي، وخاصةً ما كان يعرض على القناة الثانية يوم الجمعة " وهو يوم "العطلة الرسمية في بلدنا في ذلك الوقت"، فهو يوم اجتماع العائلة كلها،

كنا أنا وأختي نجلس ومنتظر عرض فيلم يوم الجمعة على القناة الثانية. ومع أنّ هذه الأفلام لم تكن حديثة مطلقاً، فلكي تبتث على قنواتنا السورية تحتاج لسنوات وسنوات بعد عرضها على شاشات التلفاز، وكانّ الدهر يرميها لنا بعد أن تهرم وتفقد بريقها لنعيد إحياءها من جديد، إلّا أنّها رغم ذلك كانت ذات حبكة وتمعّة.

ولم تكن مشاهدة الأفلام متعتنا الوحيدة في يوم الجمعة، بل كذلك لمة العائلة، فكنا نجتمع على الفطور معاً بعد انتهاء صلاة الجمعة، لتكون وجبتنا مميزة ومختلفة عن باقي أيام الأسبوع، فإمّا تكون نوع من أنواع الفتّات المشهورة بالبلدان العربية فتة بزيت أو فتة بسمنة، أو فول مدمس مع البندورة والمخلل والبصل، والى جانب الطبق الرئيسي هناك الكثير من الحشائش من زعتر ونعنع وطرخون .

كان اجتماعنا معاً ذو سحر خاص بالنسبة لي، يشعرنني بدفء الأسرة

الذي كثيراً ما افتقدته، فهو اليوم الذي نجالس فيه والدنا ونستأنس بحديثه وبحضوره وبشخصيته وبمزاحه معنا وحنانه علينا.

وقد كنتُ الطفلة المميزة لوالدي خلال سنوات دراستي الابتدائية، لا ينادي غيري، ولا يستمتع بالجلوس سوى إلى جانبي، وكنت ألبّي نداءاته ولا أعترض أو أبدي أي تذمر، فإذا شعر بالحر كنت أقوم بإحضار مروحة يدوية وأجلس جواره أحركها لينتفش ببعض الهواء الصادر منها، وإن شعر بالبرد أدفئه ببعض الشراشف الموجودة لدينا.

وهكذا مضت فترة مرضي بشكل روتيني، الاستيقاظ متأخرة، لا ذهاب للمدرسة، البقاء في المنزل مع أمي حتى عودة أختي من مدرستهم، وهكذا كل يوم، إلى أن تغيرت حياتنا برحيل الضيفة المجهولة إلى العالم الآخر، مخلّفة وراءها غرفة معتمة غريبة ذات رائحة مختلفة، رائحة الوحدة والخوف والقلق والحزن، رائحة الضيق والتذمر والكبت، رائحة الغضب والتوتر، وهذه الغرفة كانت جل ما ورثناه عن ضيفتنا.

"ها أنا الآن أنزع غبار الأمس عن روحي، وأمسح دموع طفولة لم تعرف معنى البراءة. لقد حملتني أيامي ثقلاً لم أختره، لكنني أرفض أن يكون ميراثي جرحاً ينزف ظلماً. سأتعلم كيف أنزع الأشواك من قلبي، وأزرع مكانها زهور التسامح. قد لا أستطيع محو ذاكرة الألم، لكنني سأكتب فصولاً جديدة تليق بإنسانتي. فالحياة - رغم كل شيء - تستحق أن نعيشها بقلب نقي، حتى وإن ولدنا من رحم المعاناة."

مراهقة مع وقف التنفيذ

"دعوني أكون مجنوناً بعض الوقت؛ لأنني أستمد جنوني من سبب وجيه." من رواية "موبي ديك" لهيرمان ملفيل (على لسان إسماعيل الشاب)

"كل شيء يبدو لي وكأنه تحدٍ. أريد أن أعيش، وأعيش بحدّة، وهذا الشعور يدفعني أحياناً إلى فعل أشياء طائشة." - من رواية "الأبله" لدوستويفسكي

"لقد أخبرتني كالبيورنيا أن عليّ أن أتعلم أن أكون سيّدة، وأن أبدأ الآن... لكنني لم أكن أرغب في أن أتعلم كيف أكون سيّدة، كنت أريد أن أبقى كما أنا." من رواية "أن تقتل طائراً بريئاً" لهاربر لي (على لسان سكاوت)

"المراهق لا يثور ضد والديه لأنه يكرههم، بل يثور ليثبت أنه أصبح شخصاً مستقلاً." - من كتاب "مراهقون" للدكتور سبوك (ملخص لفكرته)

بلغتُ من العمر الثالثة عشرة، وكنت عائدة من مدرستي الإعدادية، فقد انتقلت للصف السابع، وأثناء تغييرِي لملابسي شاهدتُ بضعاً كثيرة من الدماء قد غطت ملابسِي الداخلية، ففزعتُ وذهبتُ أخبر والدتي فوراً بما حصل لي، على اعتبار أنّي لم أعرف أنّ هذا شيء طبيعي يحصل لكل فتاة حين تقترب من سن البلوغ، فلم تخبرني والدتي بذلك، ولم

تطلعتني على ما هو سن البلوغ وما التغيرات المصاحبة له، حتى أنّها لم تجعلني أستعد ليومٍ كهذا اليوم.

ورغم أنّي أصغر الفتيات، وهذا يعني أنّ أختي قد سبقتني في المرور بسن البلوغ، إلا أنّني حين سألتها قالتا لي: مجرد دماء تأتينا كل شهر.

لم تعلم الفتيات ما تسمية هذا الشيء ولا طبيعة المرحلة الجديدة التي تمران بها.

وحين ذهبتُ لوالدتي قالت لي:

"لماذا لم تخبريني فوراً بذلك ... هيا بسرعة اشربي هذه الكأس من النساء تجعل بشرتك تصبح أبيض... بدلاً من لونك هذا"

أنا: "ولماذا أشربه ... أنا لا أحبه".

أمي: "ستشربيه رغماً عنك ، أفهمت ... والآ لن تتزوجي وستبقين في وجهي للأبد".

أنا: "وماذا به لوني ... إنه يعجبني ... لن أشربه".

وخرجت مسرعة وغاضبة من كلماتها القاسية، ويجول في فكري الكثير من الخواطر، فجل هم والدي أن أصبح بيضاء كأختي الكبرى سارة، وأنّ هذا اللون هو المفضل للرجال دون سواه.

حدثت نفسي: "يا إلهي .. ما هذا المجتمع الذي أعيش فيه، كم هو
سخيف، كل من حولي لا يهتمهم سوى الجمال، بشرة بيضاء وعيون
ملونة وجسد ممتلئ.

وكان كاساً من النشاء ستجعل بشرتي بيضاء ناصعة، وإن ولدت
سمراء اللون، ولا أفهم هذه النظرة الدونية لذوات البشرة السمراء أو
السوداء".

وانطلاقاً من اللحظة التي رأيت فيها الدماء انقلبت حياتي رأساً على
عقب، فلم أعد أستطيع اللعب مع الصبية ولا الخروج من المنزل
لوحدي، وإذا خرجت يجب أن يرافقني أخي، كما فرض عليّ الحجاب
لأنني أصبحت كبيرة.

في البداية كنتُ أضع الحجاب، وإذا شعرت أنّه يضايقني، وإن كنت في
الطريق، كنتُ أنزعه عن رأسي ثمّ أضعه من جديد، وكنت ألقى الكثير
من التوبيخ من والدتي على فعلتي المنكرة.

كما بدأت والدتي تستقبل العرسان لنا، فقد بلغنا ويمكننا الزواج، وبما
أنّ أختي سارة كانت الأجل على الاطلاق، فقد كانت حصتها أكبر من
العرسان، ولكنها كانت تستقبل الموضوع وفكرة العريس والزواج
بسخط وغضب لا حدود لهما، فترمي بأغراضها على الأرض وتكسر
أي شيء يقع أمامها وكانت ترتمي على الأرض وتضرب بقدميها
وكانها طفلة ذات أربع سنين، وتصرخ وتبكي قائلة:

"لا أريد الزواج.. الله يلعنكم ويلعن هالعيشة ... تريدون التخلص منّي
.. لن أسمح لكم بهذا" ..

ثم تضرب أختي فرح التي تصغرها بسنة واحدة، وتلومها لأنها لم تكن جميلة، وكثيراً ما ألقت بها على الأرض أو ألقت بملابسها خارج المنزل فأختي سارة كانت نموذج الطفلة المدللة، التي لا تستطيع تحمل مسؤولية نفسها لتتحمل مسؤولية عائلة بأكملها، ولذلك كانت تكره الارتباط بل وحتى تخشاه وتتوتر من سماع سيرة العريس والزوجة والارتباط ، لدرجة أن البيت يصبح كجهم من شدة الصراخ والجدال، ولا يرتاح لنا بال حتى تمر الأيام ولا يتصل العريس بنا ويسأل عن رأي العروس به، فدائماً ما كان الرفض يأتي من قبله، ربما لأنها حينما تستقبل العريس الزائر تكون على درجة من الاسوداد في القلب والروح، مما يُشعر الطرف الآخر بطاقة سلبية رهيبه، كثيراً ما كانت أُمي تعتبر ما يحدث مع أختي على أنه سحر.

ولم تكن فقط تكره الزواج لنفسها بل وأيضاً لجميع أخوتها، وتتمنى لو أن الجميع لا يرتبطون ويجلسون معها لخدمتها وتغنيجها وتدليعها كما كانت من قبل.

أمّا فرح فكانت تتمنى لو ترتبط وتجد شخصاً يحبها ويعوضها عن حزنها وألمها وشعورها بالنقص، إلا أن النسوة اللواتي يلتقين بها سرعان ما ينصرفن دون رد خبر، وكثيراً ما غادروا بيوتنا وعلى وجوههم إمارات الاستياء، وكأنهم خدعوا فقد طلبوا الالتقاء ورؤية الفتاة البيضاء، وإذ بهم يرون فتاة شديدة السمرة، وهذا يعود لأن أختي سارة ترفض الدخول وتصيح، فتخجل والدتي من الضيوف وتجبر فرح على الدخول بدلاً منها.

وهذا ما سبب جرحاً عميقاً في قلب فرح لم تنسه أبداً، والى اليوم تظنُ نفسها أكثر النساء بشاعة على الإطلاق.

ولم أكن أنا ضمن هذه الدائرة، بسبب فارق العمر بيني وبين أختي ، وهذا ما جعل سارة شديدة الغيرة مني، تغار من حركاتي ومن كل ما أقول ومن تصرفاتي وترغب في تقليدي في أي شيء أقوم به أو أقوله، لدرجة أنّها

كانت تكتب عني في يومياتها، والتي كنتُ أطلع عليها دون علمها، حيث تصفني بالفتاة السخيفة والتي استحوذت على حب والديها وسرقت الأضواء منها، لدرجة أنّها كانت تراني سبب شقائها وتعاستها.

ولم يقتصر الأمر على هذا بل كانت تحاول جاهدة أن تفرض نفسها عليّ ، ظناً منها أنّي كفرح، أنحني لها وأسمع كلامها، إلا أنّها اكتشفت أنّي شخص لا يستهان به ولا يمكنها حتى مجاراته ولا محاولة السيطرة عليه.

وهذا زاد من حنقها عليّ وحسدها ورغبتها في موتي والتخلص مني لتعود لها سعادتها التي حرمت منها بسببي.

إلا أنّ القدر إلى اليوم لم يستجب لأمنياتها الشريرة الدفينة، فها أنا اليوم على قيد الحياة أسطر كل الأحداث وأخبر الوقائع وأسرّد القصص.

وببلوغنا سن المراهقة اختفت ألعابنا ذات المضامين الجنسية، لتزداد المسافات فيما بيننا كأخوة لا يجمع بينهم سوى اسم العائلة فقط، كلّ منا وجد عالمه الخاص، فسارة انكبت على ممارسة أفضل هواياتها وهي الجلوس أمام التلفاز لدرجة الالتصاق به طوال النهار لا دراسة ولا

عمل ولا حتى مساعدة لوالدي في أعمال المنزل، أمّا فرح فانكفات على دراستها لتنال المراتب الأولى في جميع سنواتها الدراسية، ولتلقب ب " فأرة الكتب " لشدة نهما للدراسة.

أمّا سامي فانعزل عن الآخرين ومارس هوايته المفضلة متمثلة في فك الأشياء وإعادة تركيبها من جديد، واصلاح الأعطال الكهربائية مهما كانت صعوبتها، فاعتبر بذلك الأكثر ذكاءً في العائلة، حيث كان ذكاؤه من النوع الميكانيكي.

بينما أنا شُغفت بالمطالعة وقراءة القصص والروايات، وأي كتاب كنت أستطيع الحصول عليه، فكانت أسرتي هي الكلمات، وأصدقائي هم الحروف.

وتطورت قدرتي لأمارس الكتابة والتأليف، فكانت الرسوم الكرتونية التي أقصّها وأقتطعها من الكتب تمثل عالماً ساحراً ومليئاً بالمغامرات، أنشأ بها شخصيات حية تتكلم وتحب وتلد وتتسوق وتمارس حياتها بشكلٍ طبيعي.

ولم أكتفِ بالرسوم الكرتونية التي أحبيها، بل كذلك أزرار القميص وأزرار البنطال، كنتُ أخلق منها مدرسة كاملة بما فيها من معلمين وموجهين وأطفال، وبالطبع كنت أحد هذه الأزرار والبطلة الرئيسية في هذه المدرسة.

في المدرسة الإعدادية لم أكن من المتفوقات، لكنني كنتُ مجتهدة وأحصل على علامات جيدة تجعلني في موقع لا بأس به، لكن ما أثار غيظي هو المقارنة التي بدأت بدخولي المدرسة الإعدادية ذاتها التي كانت فيها أختي، وهذا جعلني دائماً محط أنظار الأنسات، وكنا يسألنني

دائماً؟ هل تشبهين فرح؟ هل أنت مجتهدة مثلها؟، كانت المقارنة في كثير من الأوقات بيني وبين فرح، وتدخلها في بعض الأحيان مقارنات بيني وبين سارة في الشكل فقط، فسارة أبعد ما تكون عن أجواء المدرسة والدراسة ودائماً علاماتها متدنية، ولم تكن تنجح للصف التالي إلا بشق الأنفس.

وبالطبع لم يقتصر الأمر على المدرسة فبيت جدتي كان السباق في مضمار المقارنات وخاصةً في الجمال وبياض البشرة والصحة والعينين العسليتين وغير ذلك، وفي كل مرة ذهبنا فيها لزيارتهم شددوا على جمال سارة وأكدوا أنها ستتزوج قريباً ممّا كان يثير غيظها ويفاقم من غضبها وحقدنا عليّ وعلى فرح، وأحياناً كثيرة كانت تترك منزل جدتي غاضبة وهي تصرخ وتلعن وتشتتم والدتي ووالدي، ونحن بالتأكيد أختها كان ينالنا القسط الأكبر من هذه الشتائم واللعنات.

ولم تكن المقارنة معاناتنا الوحيدة، بل المشاحنات التي تدبُّ فجأة بين والديّ كعاصفة تجرف كل ما تمرُّ به، فتنالنا هذه العاصفة ببعض الصفعات والضربات والكلمات دون أي سبب، فيكفي أن يقول والدي كلمة لترد عليه أمي حتى تبدأ المشاحنة وتشتعل، فينقلب بيتنا رأساً على عقب.

أحياناً يكفي تصرف صغير من قبلنا ليكون سبباً في حدوث هذه المعركة، فذات يوم كانت والدتي تحضر حفلة لإحدى أقاربها، وأبي في عمله، فتركنا نحن في المنزل لوحدها، وهذا دفعنا لاستكشاف غرفة والدتي وأدوات مكياجها، وبدأنا بوضع مكياج على وجوهنا، وهنا دخل والدي وثار ثأثرته لينهال علينا ضرباً بيديه وقدميه، وطردها من

الغرفة، وحين عودة والدتي رمى عليها يمين الطلاق وطلقها وخرج من المنزل مسرعاً وصافقاً الباب وراءه بقوة وعنف، تاركاً والدتي في حالة يرثى لها وكذلك نحن، ومرت الأيام حتى تصالحا وأعاد والدي والدتي لعصمته، لنعود لسلسلة المشاجرات من جديد مراراً وتكراراً ، على كل تافهة صغيرة، متناسين المشكلات الكبرى.

وربما كانت كلمة والدي المفضلة لوالدتي هي: أنت طالق، فلا يقوى على شيء سوى نطق هذه الكلمة بعد كل حوار بينهما، ومن ثم يذهب والدي لشيخ ليفتي له ، فيعيد أمي من جديد على عصمته، وبهذا أعتقد أننا نشأنا في جوٍ من الحرام، فأمي وأبي عاشا دون رابطة شرعية بل في ظل علاقة مشبوهة.

ومرّت علينا أيام كثيرة لم نذق فيها طعم النوم أو رائحة الهدوء أو السكنية.

وكان ذلك بسبب طريقة والدتي في معاملة أخي الصغير ودلالها ال الزائد له، ممّا أثار غيرة والدي، فانقلبت غيرته لكرهية لأخي سامي، رغم أنّه ولده الوحيد وحامل اسم العائلة، إلّا أنّ أبي لم يعد يرى فيه سوى عدوه اللدود الذي أخذ زوجته منه، وبدأ يشحن جميع طاقاته لمحاربة هذا الطفل، من خلال مناداته بـ " حمار " بدلاً من اسمه لدرجة أنّ أخي لم يعد يرد على أحد أو يلبي النداء إلّا إذا نُودي له بهذا اللقب " حمار."

وقد حاولت والدتي باهتمامها بأخي تعويض ما عاناه من أبي من قسوة وضرب، فربطت نفسها بذكر آخر هو أخي، وأصبح همها الوحيد

ومستقبلها وحاضرها، ولم تعدُ تفكر في أحدٍ سواه، وكأنَّ عائلتها اقتصرَت على أخي فقط.

أمَّا نحن الفتيات فأحياناً نشعر بنا وأحياناً نتناسى وجودنا، وربما أنا وفرح كانت حصتنا أكبر من الإهمال، في حين أنّ سارة كانت أيضاً تحت جناح والدتي فهي شبيبتها في الشكل والجسم والصدر البارز والمؤخرة الممتلئة، لذا كانت المفضلة، وحين تنظر إليها تلمع عيونها وترى فيهما بريقاً لاينطفئ، بينما حين تنظر إلي تنظر بقرف واشمئزاز وكأنها تنظر لكائن قبيح المنظر أو حشرة متعددة الأرجل مشعرة.

كثيراً ما كنتُ ألاحظ هذا التفاوت والتناقض في المعاملة فيما بيننا، فلم يعرف والداي كيف يتعاملون مع أطفالهم الأربعة بعدل، وربما لم يكن عليهم أن ينجبوا أربعة أطفال يكفيهم طفلاً واحداً، ليحسنوا تربيته، وربما حتى لو كان لديهم طفل واحد لاختلفوا كيف ينشئوه، وهذا يعود لتقافتهم البسيطة حول الطرق السليمة في تربية الأطفال، وكذلك لرغبة كل منهم في تعويض النقص الذي لديه، فوالدتي كانت تشعر بانخفاض رغبة والدي فيها كجسد لا كروح وعقل، فلم تعد علاقتهما الجنسية حميمية مثل السابق،

وربما لانخفاض قدرة والدي الجنسية، ومثلما يقول العوام من الناس " لم يعد ينفع كرجل " ، وهذا ما جعل والدتي تعوض حرمانها الجنسي بالاتجاه لذكر يشابه زوجها، لديه ما له من أعضاء تناسلية ولكن الفرق أنّه ما زال فتياً، وهذا ما جعلها تستمر في إرضاعه أربعة سنين كاملة بل وحتى خمس سنين، ترضعه من صدرها وتتلذذ وهو يعرض على ثديها ويمتص منهما الحليب، وكم كانت سعادتها كبيرة وهي تقوم

بتنظيفه وتحميمه، فكانت تحممه كل يوم وتبقى ساعة أو ساعتين معه،
تعتني بنظافة عضوه جيداً وتشرف بنفسها على خلع ملابسه وتلبيسه.

أمّا والدي فكان شعوره بالنقص الجنسي دافعاً له للانتقام من أخي ومنا
جميعاً، فكان يمشي عارياً في المنزل مستعرضاً أعضاؤه الجنسية
الكبيرة.

أول مرة رأيت فيها أعضاؤه الجنسية انبهرت، حيث كنت في سن
الرابعة عشرة، وكانت أعضاؤه كبيرة الحجم فعلاً، وكثيراً ما كان
ينحني ليرينا المنظر بشكلٍ أفضل، وإذا ما بدرنا منا أي اعتراض على
رؤيته بهذا المشهد كان ينهال علينا رفساً وضرباً وكأننا بهائم لديه.

وفي مراتٍ أخرى كان يمسك بوالدتي وينزع لها ملابسها الداخلية
أمامنا ثم يمد يده لمؤخرتها وكأنّها لعبة يلعب بها ويستمتع.

وفي ظل هذا الجو الجنسي السخيف في منزلنا ومنزل جدتي نشأنا
وترعرعنا، فبنتُ قلقة من هذا الموضوع، وزاد شعوري بالخوف من
والدي من أن يفعل بي كما يفعل بأمي، فهو صاحب السلطة ولا يستطيع
أحد أن يرفض له أي طلب أو أمر، ولهذا كنتُ أخاف البقاء معه في
نفس المنزل لوحدها، فتنتابني الوسواس من أن يُقبل إلي ويغتصبني،
وفي حال اضطررتُ للبقاء معه في المنزل كنتُ أذهب لغرفتنا التي
كانت غرفة

المجهولة سابقاً " غرفة جدتي" والتي أصبحت غرفتنا أنا وأختي،
وأقفل عليّ الباب منعاً له من الدخول واللاحق بي.

وتفاقت مشككتي، فلم يعد الخوف من والدي فقط بل انتقل لجميع أخوتي، فبتُّ أخاف منهم بسبب ما كنّا نقوم به من ألعاب جنسية ونحن صغار، من أن يتحرشوا بي جنسياً كذلك، وهذا جعلني أتجنب الجلوس معهم على نفس الكنبه أو البقاء في نفس الغرفة، لكنني لم أتمكن من الانزواء بعيداً خلال النوم، فقد فرضت عليّ والدتي مشاطرة أختي سارة السرير نفسه في النوم.

فكنت ألفت نفسي بالشرشف وأغطي رأسي كاملاً، وإن كان الجو حاراً وخانقاً حتى لا تراني سارة فتتحرك هرموناتنا الجنسية الداخلية وتمد يدها عليّ لتلمسني، وأنام قرب حافة السرير لدرجة أنّ من يراني يحسب أنّي سأقع من عليه، وفي كل مرة كانت تسألني فيها والدتي لماذا أنام على الحافة، كنتُ أجيبها بأنني أشعر بالراحة وبقربي من الأرض، وهذا جعل والدتي تحسبني فتاة غريبة ومختلفة.

وما فاقم الوضع سوءاً هو أنّ سارة بسبب شعورها بملكية أي شيء تقع عيناها عليه، فقد اعتبرت السرير لها وحدها، ولا يحق لأحد مشاركتها، فكيف إذا كنتُ أنا عدوتها اللدودة من يشاركها ملكيتها، فتتحرك في السرير وتمد يديها وقدميها وكأنّها تسبح، أو تترك السرير كله لتقترب مني وتدفعني، ربما لأقع وربما لما كنتُ أحسبه من تحرش في.

وتأكدت مخاوفي من أختي سارة، حين تكرر الموقف في كل ليلة، وحتى أثناء النهار، كانت إذا وقفت أمام باب الغرفة وأرادت الدخول لم تكن لتبتعد وتسمح لي بالدخول حتى يحتك جسدها بجسدي وخاصة المنطقة السفلى،

وكذلك كان رفضها للزواج من أي شاب أو رجل يتقدم لها سبباً آخر في تعزيز مشاعري نحوها.

فسارة لم تكن سوية جنسياً بل شاذة وتميل للنساء وتستلطفهم، فكثيراً ما شاهدتها تضرب أخي فرح على مؤخرتها برقة مراراً وتكراراً ، أو تمسك

بثديّ فرح الصغيرين، فرغم أنّ فرح بلغت مثل سارة إلا أنّ جسدها بقي طفولياً لم ينمو ولم تظهر فيه الملامح الأنثوية، أمّا سارة فقد أصبحت ذات صدر ضخم ممتلئ ومؤخرة مدورة وممتلئة.

وفي كل شهر كنتنا نعاني الصداع من سارة وصراخها لدرجة العويل، فشعورها الداخلي بأنّها رجل كان يزيد من كرهها للدورة الشهرية، فتضرب بيديها وقدميها الأرض في كل مرة تأتيها، بل وحتى تصرخ وتشتتم وتلعن والدتي لأنها أنجبتها كأنثى وليس ذكر.

وبالرغم من أنّ الملامح الانثوية لا تنقص سارة، كانت الملامح الذكورية لا تنقصها كذلك، فقد كانت مشعرة، وذات شعر أسود مجعد وغزير ينتشر في كافة أنحاء جسدها حتى رقبتها وبطنها وثدييها وظهرها، أمّا الحصة الأكبر من هذا الشعر فقد نالته مؤخرتها، وكأنّ أعشاباً نمت في تلك المنطقة وخاصةً من الأمام، ولم تكن ترغب في نزعها أو الاهتمام بنظافتها، وليس هذا فحسب بل أعتقد أنّها كانت تتباهى بها وتؤكد من خلالها أنّها ربما تكون رجلاً أكثر من كونها أنثى.

وكذلك تصرفاتها وحركاتها تثبت هذه النظرية، وتشير لشذوذ أختي وعدم سوائها، لا جسدياً ولا نفسياً، فتمشي كرجل تضرب قدميها ضرباً على الأرض، وتجلس وهي تباعد بين قدميها مسافة كبيرة، وإذا غضبت ارتفع صوتها وأصبح خشناً وانهالت علينا بالشتائم القبيحة.

ولم يشعر والداي بالمشكلة الكبيرة التي تعانيتها سارة، وربما حتى لم يهتمتا بذلك، بل عداه أمراً طبيعياً تمرُّ به كونها أصبحت في مرحلة المراهقة، رغم أنَّهما لا يعلمان حتى ما معنى كلمة مراهقة، إلا أنَّهما يدعيان ثقافتهم بتغيرات هذه المرحلة هرمونياً ونفسياً، فكانت ردّة الفعل لكل منهما مضحكة للغاية، فوالدتي كلما غضبت سارة وشتمتها سرّت وضحكت وكانَّ أحداً يمسك بها ويثير مناطق الضحك لديها، بينما والدي يقول: هذه الفتاة سرُّ أبيها، وكانَّ من الفخر أن تشتم الفتاة كما يشتم أبوها.

ومع كل غلاظة أختي سارة وكلامها الشنيع كانت محط أنظار الجميع، كلما رآها أحدهم قال: "بسم الله ... ما هذا الجمال... يا إلهي أنت رائعة ... هل تزوجونها."

ونظراً لهذا المديح المتتالي من الجميع وغبابة تصرفات أختي وعقلها الطفولي الذي لم ينمو أبداً رغم أنَّها تجاوزت الطفولة وانتقلت لمرحلة أخرى، لم تستطع النجاح في دراستها بل وحتى لم يكن يعينها الأمر، فليس من عاداتها أن تجتهد لشيء، لأنَّها تربت على أنَّ أي شيء تريده تحصل عليه فوراً دون أن تتعب نفسها، فتوقعت أنَّ الدراسة شبيهة كل شيء، يكفي أن تريد النجاح حتى يأتيها على طبق من ذهب وليس من

فضة، لكن ليس كل الأمنيات محققة، فخاب ظنّها ورسبت في عدة سنوات دراسية، إلى أن تركت الدراسة نهائياً وجلست في المنزل.

بينما مرافقة فرح كانت ألطف نوعاً ما، رغم أنّها عانت من جسدها الطفولي، إلا أنّ عقلها دراسياً كان نامياً حقاً، فاستطاعت التميز وبهرت الجميع بتفوقها وحصولها على أعلى الدرجات وكأّنها تثبت للجميع أنّها موجودة.

لكنّها اجتماعياً لم تنمو وظلّت حبيسة طفولتها، فحين نذهب لزيارة العائلة، لا تسلّم على أحد بل تبقى خلفنا وكأنها تحت جناحنا، ولا تبادر للحديث بأي موضوع، فقط تكتفي بالاستماع وتحريك رأسها يمنةً ويسرى، وإنّ أحد من الحاضرين وجّه لها سؤالاً تغادر الغرفة فوراً وتنسحب منها وكأنّ الموضوع لا يهمها، أمّا إذا بادرها شخص ما بالإهانة كما قال لها يوماً ما زوج خالتي:

"يا حرام ... ربما لن تتزوجي أبداً في حياتك."

فتكون ردّة فعلها أنّ تبكي فقط دون حتى أن تصدر صوتاً خوفاً من أن يسمعها الآخرون، وكثيراً ما كانت تتلقى مثل هذه العبارات بدموع وحز، دون حتى أن ترد أو تقول شيء للطرف الآخر، فمنهم من كان يقول لها: أنت بشعة، لا تشبهين والدتك بشيء، وآخر: الله يكون بعون والدتك، ستبقين ملازمة لها طوال حياتك، وآخر: صحيح أنّك سوداء لكن لا بأس فأنت بالأخير من صنع الله، وآخر وهكذا.

لا أعلم إلى اليوم كيف صمدت فرح أمام كل هذه الترهات التي يتفوه بها هؤلاء القوم، الذي يمثلون عائلتنا، بل هم أشبه بقاض يحكم علينا بالإعدام، أو قناص يريد الانتقام منّا.

ويوم إثر آخر وسنة إثر أخرى، ومع ازدياد نحول فرح، وازدياد سمرتها، تعلمت التوقع على نفسها وخلقت جداراً بينها وبين الآخرين، جداراً من الوحدة والألم شيدته بدموعها الغزيرة.

وبالطبع لم يكن والداي قادرين على فعل أي شيء لفرح أو حتى مسانبتها وتشجيعها، بل كانت والدتي تزيد الأمر سوءاً بكلامها حين تقول لها: لا يوجد فتاة لن تتزوج، كل فتاة مصيرها الزواج، حتى وإن كانت بشعة، أما أبي فيقول لها: " أنت تشبهين عمك، فهي أيضاً كانت بشعة، وقد تزوجت."

حين أسمع والداي أحسبهما شخصين غريبين عتاً، لا مشاعر أبوة ولا مشاعر أمومة، ربما أغفر لأبي لأنه لم يعرف معنى هاتين الكلمتين " الأب والأم"، لكنني لا أغفر لأمي التي تربت في جو عائلي أفضل نوعاً ما، لكن مع هذا ربما كونها جميلة واعتراف الآخرين بجمالها جعلها لا تعرف معنى الشعور الذي تشعر به ابنتها فرح، فلا يقدر النعمة إلا من فقدها.

كثيراً ما قرأت أن الله سبحانه يوزع الأرزاق بالتساوي على جميع خلقه، وأن كل إنسان ميزه الله بشيء عن غيره، وأنه يكفي أن الله خلقك فأنت جميل، أليس الجميل من صنعه، فكيف وهو يملك صفة الجمال فلن يصنع شيئاً بشعاً.

فالجمال والصحة والقوة والنباهة والقدرة على التواصل والمرونة والذكاء كلها أرزاق، لكننا نحن البشر لا نقدر نعم الله علينا، فنرغب في تملك كل شيء، وليس هذا فحسب بل نتمنى زوال النعمة عن غيرنا،

لنشعره بتفوقنا عليه، وبأننا أقرب إلى الله، فنحن من أعطانا كل شيء ،
أما أنت فانظر لنفسك!!!!!!..

فسارة مثلاً ترغب في جسد أختها فرح، وتتمنى لو أنها لا تمتلك هذه
المظاهر الأنثوية، أما فرح فتتمنى لو خلقت كسارة، وربما الاختلاف
الوحيد بينهما أن سارة تتمنى لو أن فرح لم تكن موجودة أصلاً في
حياتها، وليست فرح فقط بل تتمنى لو أننا جميعاً اختفينا، فتبقى هي
مدللة العائلة الوحيدة.

أما مراهقتي فكانت في قلبٍ مستمر، بكاءً كل ليلة بسبب خوفي من
سارة ومشاطرتي لها السرير نفسه، ثم دعائي وصلاتي أن يحفظني الله
منها، ثم قلقي من أنها تقوم بلمسي كل ليلة في مؤخرتي دون أن أشعر
لتغسل منطقتي كلها بلسانها، وكذلك خوفي من والدي، وتوتري من
المشاحنات

والمشاجرات التي تنشب كل يوم دون توقف، وكذلك المشكلات التي
كانت تخلقها سارة لأتفه الأسباب وضربها المستمر لفرح كلما غضبت
من أحدهم، وكما قالوا لها " لسارة : " أنت جميلة."

فهي شكلياً تكره أن يقولوا لها أو أن يصفوها بأنها جميلة خوفاً من أن
يدبروا لها زوجاً أو عريساً أو خاطباً، لكنها تكره أن ترى من هنَّ
أجمل منها.

وأحسب أنه لو اجتمع جيش من المعالجين النفسيين ليفهموا أختي
لعجزوا عن هذا، فكيف لي بفهمها ومحاورتها، ومهما حاول الفرد
النقاش معها لن يخرج بنتيجة على الإطلاق.

وتمضي بنا الحياة دون أن نعلم إلى أين ذاهبون، أو ما الذي قد فعلناه بها، أو ما هي رسالتنا، ربما لم نكن يوماً شيئاً، كذرة رمل تمر في الهواء لا يشعر بها أحد، بل نحن ربما لم نصل لتكون ذرة رمل، فقد تدخل ذرة الرمل عينك فتؤلمك، في حين أننا مررنا في هذه الحياة دون أن نترك أثراً لدى أحد، فقد كان جلُّ همنا بالحياة الجنس والزواج والعريس والعروس والعرس والأطفال، لا شيء آخر.

حتى أطفالنا لم نعرف كيف نتعامل معهم ولا كيف نزرع فيهم قيماً أخلاقية، وأقصد بذلك عائلتنا الكبرى، عائلة جدي.

وإذا ما عدتُ لمراهقتي لرأيتها خالية من الحنان والحب والسعادة والأمل، مليئة بالأحزان، ومهما ضغطت على ذاكرتي لا أستطيع تذكر كل ما مررتُ به من أحداث بتفاصيلها الدقيقة، فالذاكرة أيضاً تتعب من ثقل ما تحمله، ولهذا تجدها ترمي مخلفاتها التي مرّت عليها السنين، لتستطيع متابعة الحياة مع صاحبها.

تقاعد والدي وبلغ السن القانوني لترك العمل وهو الستين، وقد أصابه هذا بصدمة كبيرة، واحساس كبير بالفراغ، لم يعرف كيف يداويه، لهذا تجده يستيقظ صباحاً كأنه ذاهبٌ لعمله كالمعتاد، فيخرج للحارة ويقوم بتنظيفها وتكليسها من الأوساخ من أولها لآخرها، لدرجة أن أهل الحارة اعتقدوا أنه قد عُيّن عامل نظافة لشارتنا بدلاً من عامل النظافة القديم الذي لا يمر حتى بشارتنا ولا يراها، فيدع ما بها من أوساخ تتراكم على مر الأسابيع والأشهر، بل وكأننا في مقلب للقمامة ليس لشارتنا فقط بل لجميع الحارات التي تحيط بنا.

وبعد انتهاء مهمته الصباحية تراه يعود منهكاً، ومليئاً بالأوساخ، لكنّه لا يجلس ليسترخ بل يسارع لتنظيف المنزل من الأوراق التي تتكدّس بفعل الرياح، ومن ثمّ يصعدُ للسطح، فيسقي ويرش النباتات المنزلية من ورود وأزهار وفل وباقي النباتات التي ذكرتها سابقاً، وبعدها ينطلق ليحضر لنا طعاماً للفطار، من طبق فول أو طبق فتّة وغيرها.

كانت هذه المهمات التي يقوم بها يومياً دون كللٍ أو ملل، ربما في بداية تقاعده كانت هذه المهمات تؤنس وحدته وتملي عليه وقت فراغه، لكنّها لاحقاً مع مرور الزمن لم تعد ذات نفع له، بل أصبحت عبء إضافي على صحته، وهذا زاد من انفعاله وتوتره، فأصبح يضيق بمن حوله ويغضب لأتفه الأسباب ويتأفف من أي تصرف يبدر منّا أو من أمي، وبما أنّه قبل التقاعد لم يكن يقضي معنا وقتاً طويلاً وبهذا لم يكن يعرف تماماً كيف نقضي وقتنا وماذا نفعل وماذا نلعب، فقد أصبح الآن دقيق الملاحظة على أي سلوك يبدر من أبنائه، وهذا ما جعله أكثر ضرباً من ذي قبل،

وأكثر عنفاً وايداءً لنا، من ضربٍ للوجه إلى رفسٍ إلى بصقٍ في الوجه ، وشتّمٍ ولعنٍ و.....

كما زادت غيرته من أخي لدرجة كرهه له، وربما بهذا يلوم جنسه الذكوري، ويتمنى لو كان أخي أنثى، فمع تقدم أخي في العمر بدأ أبي يشعر بخوفٍ متزايدٍ من أن يكتشف أمر هروبه من الالتحاق بالجيش، معتقداً أنّ أخي سيسلمه بنفسه للجيش حين يبلغ من العمر الثمانية عشرة عاماً، فبلوغه هذا السن يتوجب عليه أن يتقدم للجهات المعنية ويقدم

الأوراق الثبوتية التي تؤكد أنه وحيد لعائلته، وهذا بالطبع سيفضح ما خبأه والدي من سنين وسنين.

وباتت المشكلات زاد يومنا، وشمس صباحنا وقمر ليلنا، فلم يمر يوم دون أن ينتهي بمأدبة حزنٍ وبكاءٍ على فائزة حُركت من مكانها وعلى كنية أديرت بشكلٍ خاطئٍ، أو على طعامٍ مالحٍ قليلاً، أو طعامٍ بلا ملح، وغيرها من أمور تافهة لا ترقى حتى لمجرد الالتفات إليها.

مرّت السنون سريعاً دون حتى أن نشعر بقيمتها وأهميتها، وهكذا الانسان لا يشعر بقيمة الأشياء حتى يفقدها.

فإذا ما قدر للإنسان أن يعيش فليعيش كل لحظة كأنها آخر لحظة، وليستغل كل تفصيل مهما صغر في حياته ليفرح به، ولينسى كل ألم مر به، مهما كان حجمه، فتبقى الحياة أجمل بما أوتينا فيها من صحة أو من جمال أو من مال، فالنعم كثيرة ولا تقدر بثمن، فمن ملك جزءاً منها فليحمد الله وليشكره، لأنّ هناك كثيرون لا يملكونها على الإطلاق.

وحين بلغت من العمر الثامنة عشرة، توفت جدتي والدة أمي، أصابتها جلطة قلبية إثر مناقشات وخلافات شهدتها بين أبنائها قبل موتها، فقد

اجتمعت العائلة في يومٍ سابقٍ لرحيل جدتي، وكان هذا اجتماعهم الأخير، ففي هذا اليوم اتخذت كل امرأة (من خالاتي) منهن زاوية أو موقعاً لتنزوي به وتنزل عن الأخباريات بحيث تدير ظهرها لهن وتحجب وجهها عن رؤيتهن، أمّا نحن الأبناء فلم نهتم بمشكلاتهم الداخلية، بل افترقنا عنهم وجلسنا في غرفة أخرى وتحدثنا في أمورٍ شتى.

ولم تكن خلافاتهم ذات قيمة، فأجدي خالاتي قد اتخذت موقفاً من أختها، لأنها وصفتها بـ " سمينة أو بدينة"، أما الأخرى فقد أزعجها عدم اتصال أختها بها يومياً وكأنه واجبٌ قومي على الجميع الالتزام به، والأخرى لم تصل باكراً لمنزل الجدة ممّا أغضب الأخريات وهكذا.

ولم تهتم أيُّ منهن بهذه الأم المسكينة التي تراهنّ مختلفات متفرقات، فأغميَ عليها في اليوم التالي وأسعفت للمشفى، وهناك انتقلت إلى باريها ربما سعيدة وربما حزينة، لا أحد يعلم.

وربما حزن الفقيد من أكثر الأحزان التي تتلاشى سريعاً، فلم يمض وقتٌ طويل حتى عاد كلُّ شيء لما كان عليه سابقاً، عاد أبي لضربه لأمي، وعادت أُمي للاهتمام بأخي وأختي سارة فقط، وعادت كل من خالاتي لحياتها المعتادة، ولم تبق سوى خالتي صباح أسيرة أحزانها، وأسيرة وحدثها، فقد عاشت مع جدتي ما يقارب السبعون عاماً، دون زواج ودون ولد، ودون صديق، كانت جدتي صديقتها وزوجها وأختها وابنتها، وفجأة فقدت كل أسرتها، فقدت حضناً دافئاً لا يعوض، وسنداً لا ينكسر، ويدا ممدودةً لها، ودعاءً لا ينقطع، وهذا جعلها في حزن وألم، ممّا دفع أخيها الصغير أيمن للوقوف بجانبها، فطلب منها مشاركته السكن مع زوجته وأبنائه، ليكون لها عوناً، فقبلت دون تردد وانتقلت للسكن معه، بعد أن قررت العائلة بالإجماع بيع منزل جدتي وتقاسم الورثة فيما بينهم.

وكانّ الموت حين يأتي لا يكفيه شخص واحد ليشبع به جوعه، حيثُ لحق والدي بجدتي سريعاً بعد مصارعة للمرض استمرت شهرين، ففي ليلة باردة استيقظنا على صراخ والدي، الذي كان مرمياً في الحمام لا

يستطيع النهوض منه، ووجهه أزرق وصوته مخنوق، كان ينادي ويقول: "يا أولاد ... ساعدوني ... يا أولادي ساعدوني."

ربما اعترف بنا وهو في لحظة ضعف وكسر، اعترف بأبوته تجاهنا، واعترف بحاجته لنا، وكان هذا آخر اعتراف وآخر ما قاله وما سمعناه منه، فمنذ تلك اللحظة لم يعد يستطيع الكلام، أسرعا بنقله للمشفى، وهي مشفى حكومي مجاني باعتبار أننا لا نملك المال الكافي لاصطحابه لمشفى خاص، تمّ اسعافه وادخاله العناية المشدّدة، حيث لبث فيها ما يقارب الشهر، كانت والدتي معه لا تفارقه، تستيقظ معه وتنام معه، وبالرغم من أنّ غرفة العناية لا يسمح بدخولها أحد، إلا أنّ الأطباء قد سمحوا لوالدتي بالبقاء مع زوجها نظراً لصياح والدي واحتياجه وصراخه الذي لا يتوقف، ولم يكن يقبل دواءً من يدي أحدٍ من الممرضات، ولهذا أصبحت والدتي شريكته بالمرض وبالغرفة، تحصي عدد نبضات قلبه، وتحصي مقدار تنفسه، تدعو له بصلاتها أن يشفيه الله، وتدعو لنفسها بالرحمة، فقد نالت من أبي ما هو فوق طاقتها على التحمّل، فبمرض والدي تدهورت أخلاقه وانحلت، فلم يعد ينادي والدتي سوى " هبلّة ، حمارّة ، حيوانيّة)) عذراً ((، وغيرها من المصطلحات، وان تأخرت في تلبية طلبه رمى بها بقدمه ونالت رفسةً قويةً منه، وإنّ أحضرت له شيئاً لا يريده كدواء ولا يحبه، أمسك بيدها وشدّها عليها ولفها، وكأثّه يلف حبلاً أو قطعة غسل.

كان صبر والدتي يفوق أي صبر، ولم تكن لها سلوى سوى الدموع لتخفف من أحزانها.

وبعد صراع وأخذ ورد ما بين صحوة وغفوة، تعافى والدي قليلاً وربما لم يعد يُرجى منه الشفاء، فقد قرر الأطباء السماح له بالخروج من المشفى، لتبدأ مرحلة أخرى من الألم والعذاب، لربما هي المرحلة الأخيرة، فقد أصبح والدي حاضر الجسد غائب الفكر، حاضر الروح غائب الوجدان والمشاعر، فمرة يحسب نفسه صاحب أملاك وأطيان، وصاحب مزرعة للخيول، فيطلب من أخي الصغير سامي أن يحضر له الخيول ليتأكد من سلامتها وصحتها البدنية، وهنا لم يعلم أخي ماذا يفعل، واهتاج والدي وانفعل وظنّ أنّ أخي يرفض طلبه، معتقداً بأنّ سامي هو أحد الخدم لديه، وهذا ما جعله أكثر جنوناً، فكيف بالخدم يرفضون أوامر أسيادهم، فاندفع يضربه بيديه رغم ضعفهما وبقدميه رغم تقوسهما، ومهما حاولنا لم نستطع تخليص أخي وتحريره من بين يديه، ولم يتوقف حتى ناله من التعب الكثير، ونالت من أخي الدماء والكدمات، فقد انفجرت الدماء في وجهه كما انفجر الينبوع من شقٍ صغير في الأرض، ولنرضي أبي ونمنع تكرار ما حدث لأخي، قمنا بخداعه، حيثُ طلبنا من جارٍ لنا أن يأتي إلينا ويزعم أنّه المالك الجديد للخيول، وأنّ أبي قد باعه الخيول نظراً لرغبته في ردم المزرعة واستثمار الأرض بمشروعٍ ضخم، ومن حديثٍ لآخر اقتنع والدي بكلامه، وحمدنا الله على ذلك.

وفي يومٍ آخر ظنّ والدي نفسه أنّه توفي، وأخذ ينعي نفسه، ويقول: "ترحموا على إبراهيم، يا أهل الجيرة ترحموا عليه"، وظلّ طوال النهار يترحم على نفسه ويوصي بدفنه في الحوض الكبير الذي لدينا في فسحة منزلنا.

ولم يتوقف خيال والدي عن السفر به من مجرة لأخرى، فمن رجل غني لرجل مشهور لرجل دين وهكذا، كل يوم.

حتى حانت لحظة الوداع والرحيل، توقفت كل أعضائه عن العمل وكأنها عطلت تماماً، ولم يعد يشعر بشيء لا ألم ولا فرح ولا حزن، لا شيء البتة، وما بين خوفنا وارتياحنا ... ألما وسكينتنا ... نقلناه للمستشفى، وهناك أعلنوا نبأ وفاته مرددين الكلمة نفسها : العمر لكم، كآلة تسجيل بلا روح وبلا مشاعر، بلا قلوب وبلا عواطف، أو ربما اعتادوا الوفاة كما اعتادوا الحياة.

بدأنا بتحضير مراسم الدفن، وما ساعدنا في إخراج ورقة الدفن بالرغم من أنه دون هوية رسمية هو ادعاءنا بأننا قد أضعنا هويته في المشفى، فأخذنا الرخصة بالدفن، وكانت جنازته خالية ، لم يشارك فيها سوى أخي الصغير فقط والشيخ الذي صلى عليه وقرأ له بعض الآيات، كان وحيداً في حياته ووحيداً حين وفاته، حتى أخيه وأخته لم يحضرا جنازته، بل ربما كان خبر وفاته هو أكثر الأخبار السارة التي سمعوا بها، كما أنهم لم يرغبون بمساعدة والدتي مادياً لشراء قبر له، رغم أنهم يعرفون فقرنا وعوزنا، فاضطرت والدتي لأن تستلف بعض المال من أختها صباح، التي أكدت عليها بدورها أنّ هذا المال دين وليس هبة أو عطية، وأنّ عليها إرجاعه في أسرع وقت.

دُفن والدي، دُفن الأب، دُفن رمز الرجولة بالنسبة لكل ابنة، وإن لم نكن قد شعرنا بأبوتة يوماً، إلا أنّ حزننا عليه كان كبيراً، فبوفاته تقدمت أُمي بالعمر دهرًا كاملاً، فقد أصبحت المسؤولة كلياً عن عائلة بأربعة أبناء غريبيين شاذين مختلفين، وربما هم مرضى نفسيين نوعاً ما، مسؤولة عن تأمين الطعام لهم واللباس وما إلى ذلك، فشاخت قبل أوانها.

ونظراً لتربية والدي الزائدة لأخي واهتمامها المضاعف به، فقد كبر ليكون عالة على نفسه قبل سواه، فلم يحسن أي عمل، وإن هو حاول فشل، كَفَّ عن البحث واجهاد النفس واكتفى بدراسته، حيثُ التحق بكلية التجارة، وكان همّه الوحيد هو النجاح فيها، مؤكداً لوالدي أنّ عمله بعد التخرج سيكون أفضل وذا نفع للجميع.

أمّا أختي سارة، فلم تستطع النجاح بدراستها، ولهذا سكنت المنزل كما تسكنه الأشباح، فقد باتت تفضل الانزواء في الأماكن الضيقة كسقيفة المونة، وهي مخزن نخباً به المونة أو الطعام الذي لا نحتاجه الآن وإنما نخزنه لوقت الحاجة، ولا تهتم بشيء لا منزل ولا عمل ولا فكر، فقط تجلس وتراقب الأرض وكأنّها تتحين اللحظة المناسبة للانقضاض على فريستها، أو تخبر سكان تحت الأرض بما عليهم فعله لجعل أهل هذا البيت تعساء وفشلة مثلها، ولا تستكان لحظة وهي تدعي علينا ملئاً فمها بأنّ يحترق منزلنا ونحترق معه أو أن يأخذنا الله جميعاً وتبقى هي سكيّنة هذا المنزل وحدها.

بينما فرح كانت الأفضل بيننا، فقد تابعت دراستها في كلية الحقوق وعملت مع دراستها، كمدرّسة خصوصية، متنقلةً من منزل طالبٍ

لآخر، ومن منزل طالبة لأخرى، دون كلل، طوال النهار حتى يأتي الليل وتكون قواها قد انهارت، لتكتفي بما قد رزقها الله ، ولتعود لمنزلها راضية داعية لله بتوسيع الرزق، ومع تعبها هذا كان ينالها الكثير من سارة، من صراخ إلى ضرب، فقد ورثت عن والدي الكثير من الصفات وأهمها الصراخ والسب والشتم والضرب.

وبالمقابل لم تكن فرح تفقد روحها الهادئة الراضية، بل تكتفي بالابتسام في وجه سارة ومن ثم تذهب للنوم والدموع على وجنتيها.

في حين أنني سلكت مسلكاً مختلفاً، فلم أكن كأخي ولم أكن كأختي فرح، تابعت دراستي في كلية الفلسفة، وحاولت دائماً الحصول على المرتبة الأولى لأظفر بمبلغ من المال يكفي لدراستي وملابسي ومصروفي الخاص، ويزيد منه القليل لأعطيه لوالدتي، وبهذا حاولت ألا أكون عالة على أحد.

كانت حياتنا من فقرٍ لآخر ومن انحدار لآخر، ومن المفارقة، أننا نعيش لنكسب قرشاً واحداً (عملة محلية قديمة من النقود)، في حين أن آخرون من عائلتنا يرمون النقود على الأرض كما يرمون أمتعتهم وألعابهم، ويدهسونها بأقدامهم دون أن ينتبهوا.

حين يكثر ويتكدس شيء ما عند أحدنا يفقد أهميته ويصبح الأمر اعتيادياً، ويحسب أن هذا الشيء يملكه الجميع دون استثناء، إلا أنهم يتناسون أناساً هم بأشد الحاجة لجزء من هذا الشيء.

كنتُ أنظر لهذه النقود والحسرة تملؤ قلبي، وتتملكني الرغبة في الاستيلاء على ما يعده أصحابه شيء زائد عن الحاجة، فهو لن ينقص

ممّا يملكونه ولو مقدار ذرة، إلّا أنني أعود لرشدي وأذكر أنّ الله يراقبني وأنّ المال كما علمتني والدتي ليس كل شيء، المهم الكرامة والرضا، هذا ما حاولت أمي غرسه فينا منذ ولادتنا، وتبقى أمي جديرة بأمومتها رغم كل شيء.

وبهذا كانت تسير حياتنا ما بين رضا واقتناع، وما بين نقمة ورغبة في التغيير، ما بين شهوة للمال، وبين صبر ودعاء.

ولم تتوقف عجلة الحياة عن الدوران، فهي لا تنتظر مريضاً ليشفى ولا حزيناً ليسعد ولا شقيماً ليرضا، تبقى في حركة مستمرة بأمر سماوي لا دخل ولا يد للبشر فيها.

وبهذا كان علينا أن نستمر في الحياة، مهما تعبنا ومهما نالت منّا، فلم تنتهي رحلتنا بعد، والى أن نفارقها يتوجب علينا الصمود في وجهها، فتابع كلّ منّا مهمته ودوره، إنّ كان مقتنع به أو غير مقتنع.

ولكنّ الحياة لم ترغب في روتين ما تصبغه علينا، وإتّما شاءت بيث عراقيل ومصدّات في وجه كلّ منّا، لينال حصته ربما بالتساوي وربما دون عدل.

فأمي أصابتها حمّى شديدة أقعدتها بالفراش أسابيع دون حراك، وتوقعنا وفاتها بين لحظة وأخرى، لكن والله الحمد مدّ الله لها في عمرها ونفصت عنها غبار المرض وفراش التعب لتعود بيننا من جديد، ولكن ما عشناه ما بين غفوتها وصحوتها يوازي عمرنا كله، من خوف وقلق على مستقبلٍ فارغ بلا داعم وبلا حضن دافئ وبلا موجه، وحاضر مشتت ومؤلم موحش.

أما سارة فازدادت عزلتها وصنعت لنفسها قوقعة دخلتها وامتنعت عن الخروج منها، فلا رغبت في مراجعة طبيب نفسي ولا رؤية ممثل للدين، ورفضت رفضاً قاطعاً التواصل مع أي أحد حتى نحن عائلتها الصغيرة، وحاولت الانتحار أكثر من مرة، إلا أنها لم تكن بالشجاعة لتنفيذ طريقة الانتحار لنهايتها، فكانت إن تناولت حبوب الأدوية لم تقم ببلعها كاملة، فتستفرغ منها الكثير، وإن أمسكت سكينه تريد أن تشق طريقاً في معصمها لم تستطع سوى مس يدها مساً خفيفاً، وهكذا أمضت حياتها بين محاولة انتحار وبين إحضار طبيب لها، إلى أن أمّنت لها إحدى قريباتنا عملاً، كمساعدة طبيب أسنان في منطقة قريبة لمنزلنا وحثتها بذلك على التفاؤل والتمسك بخيط أملٍ رفيع يمكنه تأمين طوق نجاتها من هذه الوحدة التي أغرقتها.

بينما فرح ثقلت مشاعر النقص لديها حتى طفحت بميزان المنطق لديها، فباتت متلهفة لتعجب شاب بها ما مهما كان وضعه ومهما كان عمره ومذهبه ومستواه التعليمي والاقتصادي، لدرجة أن أي نظرة من أي شاب تراه في الطريق تعدّها بمثابة رغبة بها، وإن كانت نظرة عارضة محجوبة لم يقصد بها شخصها، وإنما قصد بها رؤية الطريق وما شابه، وما زاد من حالتها هو زواج جميع صديقاتها دون استثناء، فأصبحت لا يرثى لها من الكآبة والقلق، إلى أن تقدّم لخطبتها شاب يعمل أذن في مكتبة ومتزوج ولديه طفلين، وفقير، ولكنها رغم ذلك وافقت فوراً أن تكون الزوجة الثانية، وأن تفتح له منزلاً من مرتبها، وأن تصرف عليه وعلى أسرته الأولى وطفليه مقابل فقط أن يتكرم عليها ويتزوج بها ويحولها كما يقول العوام من الناس لدينا " من فتاة لمرأة في لمح البصر " أي فقط الناحية الجنسية كما هو معتادٌ من

عائلتنا، ورغم اعتراضات والدتي وأخوتي، إلا أنّها لم تأبى ترك هذه الفرصة الذهبية كما سمتها، وربما عدّتها الفرصة الأخيرة لها، وبين صد ورد وافقت على حل وسط بينها وبين أمي وأخوتي، فأنا لم أقف إلى جانبها ولم أعارضها، كنتُ أظنُّ أنّ هذه حياتها الخاصة وهي حرة فيما تفعله، وبهذا وافقت على خطبة فقط لتتعرف عليه بشكلٍ أكبر أو بمعنى تعناد عليه.

وفي فترة الخطبة يظهر كل طرف أفضل ما لديه، من حب وعشق وأخلاق حسنة ووجه بشوش وغيرها، وتبرز الهدايا بمناسبة وبدون مناسبة، من ورد ودبية للأطفال وغيرها، لكن هذه الهدايا لم تكن من خطيبها وأنما من زوجته وطفليه، فكانت تكثر بالمجيء إلينا يتبعها الطفلين متوددين لفرح ومدعين الحب والوئام، إلى أن اقتنعت أختي بأهمية هذا الزواج والارتباط للجميع، وهنا توترت علاقتها بوالدتي وسارة، التي كانت تقف لها كحاجز مرور حينما ترغب بالخروج مع خطيبها، أو ترمي لها بملابسها خارج المنزل، أو تكسر لها الهدايا، المهم أن تعكر عليها سعادتها، وبالطبع تصرفها ينبع من غيرتها الشديدة من فرح، فكيف وهي فتاة بمثل جمالها لم يتم خطبتها بينما خطبت فتاة تقل عنها جمالاً وحسناً، وصار منزلنا أشبه بالجحيم، إلى أن جاء ذلك اليوم.

كانت أختي تطبع في مكتبة ما (وهي المكتبة نفسها) التي يعمل بها خطيبها ومن حسن حظ فرح أنّه لم يكن يعمل هناك ذاك اليوم، ومع العلم أنّ فرح لا تعلم أنّ هذه المكتبة هي نفسها باب رزق (للخطيب) بعض الأوراق الخاصة بمحاضرات الحقوق، فسمعت من كان يعمل فيها يتحدثون عنها ويقولون:

صاحب المكتبة: "أين جهاد (وهو اسم خطيب فرح)." .

العامل س: "لا أعلم كان عليه أن يحضر اليوم".

صاحب المكتبة: "منذ أن خطب الفتاة لم يعد يأتي، أخبره أنني سأفصله من عمله إن استمر في إهماله".

العامل س: "وماذا يفعل أطفاله حينها كيف سيأكلون".

صاحب المكتبة: "لم يعد جهاد بحاجة للعمل الآن، فقد حاول أن يلمح لي أنّ خطيبته الجديدة هي من تصرف عليه وعلى أطفاله، هل تعلم من هي هذه الفتاة المسكينة، ليتني كنت أعرفها لذهبت إليها ونبهتها منه".

العامل س: "لقد قال لي أنّها تدرس في كلية الحقوق، وأنها تكسب الكثير من المال وتستطيع الاهتمام به وعائلته، إنّها يعتبرها ككنز جها، ما إن ينفذ مالها حتى يرميها ويبحث عن أخرى ، كما يفعل كل مرة".

صاحب المكتبة: "لولا وصية والده لي بالاعتناء به وبعائلته لكنتُ صرفته منذ فترة من هذا العمل، إنّها شابٌ وضع ودون أخلاق، كيف يضحك على بنات الناس".

العامل س: "المشكلة في البنات وليست فيه، لا أعلم كيف يوافقون على الارتباط به رغم أنه متزوج ولديه طفلين".

ولم تنتهي محادثتهما لكن فرح انصرفت مسرعة مهملة الأوراق التي جاءت بها لطباعتها، ورغم نداءات صاحب المكتبة والعامل س إليها إلا أنها لم ترد وتابعت سيرها للمنزل وهي في قمة تعاستها وخيبتها، فقد فهمت أن جهاد يمتن مهنة أخرى غير البيع في المكتبة، مهنة التجارة بالفتيات والتودد إليهن ليقعن فريسة نظراته وكلامه المعسول، وقد كانت هذه الصدمة كفيلاً لتعيد أختي لرشدتها وتخلع محبسها (خاتم الخطبة) وترميه في وجه جهاد معلنةً له رفضها الشديد لحقارته ودناءته، ومنذ تلك اللحظة والدموع لا تفارقها.

ولم يكن سامي بمنأى عن عوائق الحياة، بل كانت حصته الأكبر منها، فقد بلغ التاسعة عشرة من عمره، ولم تظهر عليه علامات البلوغ، مما دلّ على وجود مشاكلٍ جنسية لديه، وربما هذا يعود لما كنّا نلعبه سابقاً مع سامي من ألعاب ذات مضامين جنسية، جعلت فتحت الخلفية متوسعة، وجعلت الذكرى هشاً صغيراً بطيئاً في النمو، فمقارنة حجمه لحجم عضو رجل آخر كما أوضح الطبيب الذي فحصه أنه يبدو كالطفل الصغير أمام والده، وقد أكدّ الطبيب أنه لا أمل في شفائه وبالتالي لا أمل في زواجه، وكأنّته تعرّض لاغتصاب أفقده قدرته الذكورية ورجولته كما يقول العوام.

وكان هذا الخبر كالفاجعة عليه وعلينا جميعاً، لم تعلم أُمِّي ولا أُخوتي السبب، حين ذكر الطبيب أنّ أخي قد تعرّض لاغتصاب وهو طفل، إلّا أنّها أكّدت له أنّ أخي لم يتعرّض للأذى، كذلك سامي أيدّ ما ذكرته أُمِّي للطبيب، ولكنني كنتُ واثقة من أنّ تربيّتنا الجنسية الخاطئة وتشوهنا جنسياً وحديث عائلتنا الجنسي كله السبب في ما أصاب سامي، وبهذا عاش أخي صراعاً مع نفسه ومع المجتمع، وشعر بأنّ العالم كله يعلم سره ومشكلته ووضعه وهذا زاد من حدة طباعه وقسوته وعنفه ليتحوّل تدريجياً لنسخة من والدي في الجبروت والعنف، بل هو نسخة مطوّرة ومحدثّة من الكراهية والعدوان، وهذا ما جعل سحابة الهم والغم تتضخم فوق منزلنا لتمطرنا ألماً غزيراً ودماً بدل الدموع، ولم يكن أمامنا سوى الدعاء والابتهاال لله عز وجل أن ينجي أخي ممّا حلّ به.

أمّا أنا، بالمقارنة مع سامي، فوضعي أفضل ومشكلاتي أقلّ خطراً بالتأكيد، تعرّضت للتحرش الجنسي أكثر من مرة من قبل شباب وعجائز، وربما خوفي من أن يلمسني أحدهم جعلني مستهدفة وضعيفة دائماً بنظرهم، أو ربما يشعرون بما يدور في خلدي من قلق حول هذا الموضوع فيسارعون لتأكيدهم لديّ، حقيقةً لم أكن أعلم هل أنا حقاً مستهدفة أم أنّ الفتيات جميعهن يحدثن لهنّ ما يحدث لي؟

كنتُ ضعيفة وهشة ولم أستطع الدفاع عن نفسي، وفي كل مرة يحدث لي هذا الأمر كنتُ أعزي نفسي بأنّها تجربة ستعلمني كيف أدافع عن نفسي في المرات القادمة، ولكنني أفضّل، وأجبن وأضعف ولا أستطيع قول شيء أو فعل شيء لمن يقوم معي بهذا السلوك المنحرف.

ذات مرة كنت أسير في طريقٍ مزدحمٍ ومليءٍ بالبسطات (وهي عربات جواله يبيع عليها الناس مختلف البضائع والحاجيات من ملابس لتطورات إلى أحذية للأطعمة المختلفة ... إلخ)، وإذ برجل في الأربعين من عمره أشيب الشعر ذو نظارات غليظة وعينين مدورتين منتفختين، وفمٍ غليظ، يقترب مني كثيراً ثم يدخل يده ما بين قدمي ويلمس أعضائي التناسلية، كان سريعاً وقفت مشدوهة حينها، كانت هذه تجربتي الأولى، لم أصرخ ولم أتكلم، وإنما تابعت مسيري دون أن ألتفت إليه ثم توقفتُ عند عربة لبيع الأحذية، وإذ به يعود ويلمسني مجدداً من الخلف لكن بقوة أكبر، خفت وبكيت وركضتُ مسرعة، ألتفتُ حولي خائفة من أعين الناس التي قد رأته يتحرش بي، قلقة من أن يعود للحاق بي ومعاودة الكرّة مرة أخرى.

رغم أنني نحيلة وهزيلة بعض الشيء وأرتدي ملابس فضفاضة وحجاباً يغطي رأسي وشعري، إلا أنني امتحنتُ كثيراً، وعانيت مراراً من التصرفات الشاذة والبذيئة التي تبدر عن هؤلاء الرجال السوقيين، المنحلين خلقاً وأخلاقاً، فلا همّ لهم سوى إيذاء الفتيات ولمسهن والامسك بهن أين ما كانوا وكيف ما استطاعوا .

ولم تكن هذه تجربتي الوحيدة، فقد مررتُ بما هو أقسى، ففي يومٍ غائم كنت عائدة من كليتي منهكة فصعدت حافلة (باص النقل الداخلي)، وجلست على إحدى مقاعدها، وكانت الحافلة ممتلئة لآخرها من شباب ونساء وأطفال وعجائز، ولم يمض وقتٌ قصير على سير الحافلة حتى شعرت بشيٍ قاسٍ يطرق كنفني بقوة ويحتكُ به، التفتُ فرأيتُ رجلاً عجوزاً.

فعلياً لا يستطيع الوقوف، ذو نظرة بلهاء أو مدعية للبله، ظننته لا يقوى على الوقوف، فطلبتُ منه الجلوس في مكاني فأصرَّ على بقائي جالسة وشدَّ على كتفي، وقال لي: ابنتي أنت أحق بالجلوس مني، فاطمأنت إليه، وسررتني كلمة ابنتي منه، لكن بعد قليل شعرت به يحتك بي من جديد للأعلى وللأسفل ولليسار ومن ثمَّ لليمين، نظرتُ إليه فكان لعبه يسيل من فمه وعينه تقدح شرراً، ومن ثمَّ نظرتُ للأسفل، وإذ بعضوه يبرز من تحت بنطاله وكأته مثار جنسياً فقد انتصب عضوه بشكلٍ كبير وخرج منه سائلاً بلل بنطاله وبلل كتفي ويدي، تألمت واضطربت لكنني حاولت النظر إليه بقسوة وبجدية قدر المستطاع، فنجحتُ في إبعاده عني، حيثُ توجه لفريسة أخرى وضحية أخرى من الموجودات في هذه الحافلة لسوء الحظ.

شعرتُ ذلك اليوم بقرفٍ شديد ورغبة في الإقياء ما إن نزلتُ من الحافلة، فعدتُ لاهثة للمنزل والدموع تغطي عيني، ودخلتُ الحمام مسرعة واغتسلت ونظفت نفسي جيداً لدرجة أنني قد شوهتُ كتفي من شدة تنظيفه وفركه مراراً وتكراراً، ثمَّ قمتُ بغسل ملابسني وتطهيرها . وأحياناً كنتُ اتعرض للقرص من بطني أو صدري، وأخرى للمس، أو للمسك وهكذا.

كثيراً ما حدثت نفسي بكرهي للرجال وعدم رغبتني في الاقتراب منهم مجدداً، لكن ما حدث معي لاحقاً جعلني أكره الجنسين الرجال والنساء وأفقدتُ ثقتي بمن حولي جميعاً، كنتُ أحسب أن سارة فقط مريضة جنسياً ولكن اكتشفتُ أن الجميع مرضى جنسياً أو شاذين جنسياً، فلم يلبث التحرش أن توسع ليشمل نساء لنساء، وإن كنا كباراً وعجائز، وما

أدهشني حقاً هو هذه الشهوانية الحيوانية للغريزة الجنسية لدى كليهما من النساء ومن الرجال.

وبهذا لم تكن عائلتي الوحيدة المشوهة جنسياً بل مجتمعي بأسره منحرف وشاذ ومشوه جنسياً ونفسياً، همّهم الوحيد هو إشباع الغريزة والقذف والاعتصاب والتحرش

ومن تحرشٍ لآخر اعتدتُ الأمر وأصبح الأمر لديّ سيّان، ففي ظل هذا الوضع لا أسف ولا حزن على شيء.

لكنّ أفكارٍ وخيالاتٍ وحتى أحلامي أصبحت ذات مضمون جنسي، أنا التي ترفض هذا الموضوع وترفض الشهوة والغريزة بثّ أشدّ الناس تفكيراً في الجنس، في صحوتي وفي عفوتي وفي نومي.

أحياناً أتصور نفسي فتاةً حسناء ممشوقة القوام، محبوبة من الجميع، ناجحة بكل شيء، في الطب والأدب والفن والتجارة، يرغب بها الفتيات قبل الفتيان، وأقصدُ بالرغبة " ممارسة الحب واقامة العلاقة "، كانت قادرة على فعل كل ما تريد دون أن يمنعها أحد.

كل يوم تلتقي بفتاة جميلة تقلُّ عنها حسناً، لأنّها هي الأجل والأفضل على الإطلاق، وبهذا كانت هذه الفتاة بطلتي لسلسلة كاملة من الأحلام والتخيلات، ترافقني كل يوم وكل ليلة، حين أصلي وحين أتناول طعامي، حين أستحم، وحين أبدل ملابسني، حين أنام وحين يقظتي.

تدور أحداث هذه السلسلة التي بطلتها هذه الحسنة حول الشهوة والرغبة والقسوة والعنف، ففي ليلة حلمتُ بها بأنّها تسكنُ منزلاً خاصاً بها لا يشاركها به أحد وأنّ والدتها توفت وهي في الرابعة من عمرها والداها قد سافر لبلاد أجنبية ليتابع أعماله الكثيرة باعتبار أنّه طبيب مشهور، وهذا ما كان يدفعه للافتراق عن محبوبته الصغيرة وطفلته المدللة " ليدي" وكان هذا اسم بطلتي على الدوام.

ليدي كانت فتاة عبقرية استطاعت النجاح في العديد من العلوم وحصلت على شهادات مختلفة في مجالات متنوعة، وجابت أنحاء البلاد إمّا برفقة والدها أو برفقة أصدقائها أو معجبيها، ونالت الكثير من الجوائز، إمّا لاختراع طبي، أو لصورة مبدعة، أو قصيدة شعرية،.... الخ.

وبعد هذا النجاح وهذه الشهرة، عادت لبلادها، واستقرت بمنزلٍ كبير واسع ، وبدأت تنشر الحب أينما توجهت ولدى كل من تراه عينها، وهذا الحب من وجهة نظرها كان يعني الجنس.

بطلتي تلتقي كل يوم بفتاة مختلفة عن الأخرى، ولكن يجمع بينهما أنهم حسناوات، وتبدأ الأحداث منذ اللقاء الأول بينهما.

ولم أقف عند موضوع الخيالات، فقد تفاقمت مشكلتي بشكلٍ أسوأ وأصبحت مدمنة على المواقع الإباحية، لدرجة أنني بتُّ مهوسة بالجنس ورؤية المشاهد المثيرة جنسياً وخاصة بين الفتيات، فقد جذبني الجنس بين الفتيات مقارنة بالجنس ما بين الجنسين، كذلك شدني الجنس ما بين الذكور، وربما لفت انتباهي كل ما هو شاذ، فبات يومي بنهاره وليله أفضيه على مشاهدة هذه المشاهد الإباحية سواء من حيث عشق الكبار

للفتيات الصغار، أو عشق الحيوانات، أو عشق الأطفال من الجنسين وغيره.

وفي اليوم الذي لا أمارس فيه عادتي إمّا بسبب خجلي ممّن هم حولي، أو عدم توافر الإنترنت، تنتابني أعراض المدمن للمخدرات نفسها، من توتر واضطراب، وفقدان للسيطرة على الجسد، ورغبة في هرش الجسد بأكمله، وعدوان على الذات وعلى الآخرين، وغيرها، وهذا ما يجعلني في حالة يرثى لها تماماً.

واضطربت حياتي، فلا قدرة على النوم ولا قدرة على تناول الطعام، وفقدت الشهية للطعام لدرجة الهزال، ممّا أثار خوف والدتي وظننت أنّني أعاني مرضاً خطيراً، فعيوني صفراء ووجهي شاحب ولوني ازداد صفرة، مع شعور بالتعب والحمول طيلة اليوم، وهذا ما دفع بوالدتي بجرّي رغماً عني للطبيب، الذي أخبرنا بأنني لا أشكو من شيء، ولم تطمئن والدتي لما قاله، ولهذا بات ذهابنا للطبيب عادتنا اليومية، فلم ندع طبيب داخلي أو هضمي أو عظمي أو دكتور للأمراض السرطانية الخطيرة ... وغيرهم، إلّا وذهبنا لعيادته وأجرينا فحصاً كاملاً وتحاليل وصور شعاعية ورنين مغناطيسي، ورغم هذا لم يعرف أحد منهم سبب هزالي وشحوبي وضعفي، وكانّني شمعة أدوب كل يوم.

إلى أن ذهبنا لطبيب عام في منطقة ريفية نائية، يسمّوه طبيب الفقراء، حيث يعالج الفقراء بمبلغ زهيد من المال، وبعد أن أجرى فحصاً كاملاً لي، استنتج أنّني بحاجة لطبيب نفسي وأنّني على الأغلب أعاني من صراع داخلي، وقد أكدّ لوالدتي أهمية الاسراع في رؤية الطبيب قبل تفاقم الحالة بشكل أكبر.

وبعد الكثير من المشاحنات بيني وبين والدتي بسبب رفضي للذهاب لطبيب نفسي، كي لا يقال عني بين أفراد الأسرة أنني مجنونة، وهذه نظرة المجتمع بأسره للطبيب النفسي في مجتمعنا، فإلى الآن لم تتغير هذه النظرة.

في النهاية قررتُ مجاراتها ومسايرتها بعد ما عانيت من ألم وانهاك وفقدان خيوط الحياة من بين يدي، حيثُ لم أعد أستطيع متابعة حياتي بشكلٍ سوي، وشعرتُ بحاجة ملحة لشخصٍ ينقذني ممّا ألم بي.

وبدأتُ جلسات العلاج مع طبيبي النفسي، بمقدار جلسة أسبوعياً، لمدة ستة أشهر، ثمّ أشار إلي بأهمية حضوري جلسات جماعية، حيثُ أجمع خلالها مع مجموعة أخرى من الأفراد المحظمين نفسياً وجسدياً مثلي وربما هم أسوأ مني، كلُّ ممّا يخبر الآخر بمحتنه ومعاناته وعلاقاته مع أسرته والآخرين من حوله، ثمّ مع الوقت بدأنا نخبر بعضنا بما أنجزناه خلال الأسبوع بأكمله أو ما مرّنا به من نكوص في فترة العلاج.

ساعدتني هذه الجلسات كثيراً في شعوري بأهمية الحياة وبضرورة الجنس فقط كإحدى حاجاتنا الأساسية، دون إعطائه أهمية كبرى في حياتنا، فهناك ما هو أهم منه، فالعمل وتحقيق الذات ومساعدة الآخرين ذو أهمية أكبرى وذو قيمة أكبرى، تشعّرنا بأهمية وجودنا وتعزز انتمائنا للجنس البشري. فلم نخلق نحن البشر لنمارس الجنس بشهوانية وعنف كالحوانات، وأنّما خلقنا ليكون لنا رسالة مفيد بها من حولنا وتترك لنا أثراً طيباً يذكره الباقون بعد رحيلنا لهذا العالم.

وبهذا تغيرت نظرتي للأمور، وأول ما قمتُ به هو الصّفح والمسامحة
عن نفسي وعن أسرتي، عن والديّ وعن عائلتهما، عن أخوتي وعن
العالم بأسره، لأبدأ من جديد حياة خالية من الحقد ومن الضغائن ومن
التشوهات النفسية والجنسية.

ولأودع مرحلة المراهقة، وأبدأ في مرحلة جديدة بشكلٍ جديد
ومضمونٍ جديد.

أمومة مؤقتة.....

يعرف الطفل أمه من ابتسامتها..... فرجيل

"أعطيتها كل حبي. علمتها أن تمشي، أن تتكلم، أن تضحك. ثم في يوم من الأيام، أخذوها. وكأنها حلم اخترعته لأبقى حية. لكن الفراشة التي رببتها في راحتيّ حطّت أخيراً، ليس في حديقتي، بل في حديقة أخرى. وأنا هنا، أتذكر رفة أجنحتها على جلدي." من رواية "الغرفة" لإيما دونوغيو

"لقد استعارت جسدي، لكنها لم تستعِر قلبي. القلب أعطى عن طيب خاطر. وعندما أخذوا الطفل، أخذوا معهم عضواً من أعضائي. كان ساري المفعول: أمومة مؤقتة. لكن الندب دائم." من رواية "الأم البديلة" لجو جو مويس

"الأمهات لا يُستأجرن. الأمهات لا يُستردن. لكنني فعلت. وقعت على عقد يخبرني أنني لست أما، لكن لا أحد أخبر قلبي بذلك. والآن، الغرفة فارغة، والعقد منته، لكن الصمت الذي تركوه هو الضجيج الأقسى." من رواية "كفى بي جنوناً" لـ أجاثا كريستي

أمينة: أمي ... هل فرح ستكون بخير ... أتلهف لرؤية البيبي.

أمي: بإذن الله

أخرجوا أختي فرح من غرفة العمليات بعد أن أجروا لها عملية قيصرية لولادتها، على اعتبار أنّ حياتها هي والجنين كانت في خطر، فالمولودة كانت طفلة صغيرة الحجم كثيراً ولكنها لذيذة، حملتها والتجأت لله أدعوه أن يرزقني بزواج صالح وطفلة جميلة مثلها.

أسموها جوري بعد نقاش وجدال مطوّل ما بين أمها وأبيها، فالأم كانت ترغب بتسميتها جودي، والأب يرغب في تسميتها جوليا، لذا قرروا تسميتها اسماً يجمع ما بين الاسمين، وكانت اسماً على مسمى، بهية الطلعة، شديدة الجمال، سكنت قلبي منذ رؤيتها لأول مرة ومنذ إمساكي بيدها الرقيقة الصغيرة، لم أنم ليلة ولادتها وأنا أراقبها كيف تتحرك وكيف تتنفس، أراقب عينيها وفمها ويديها.

إنّ الأطفال لنعمة من المولى عز وجل لا يقدرها إلا من يفقدها.

والد جوري " جلال " كان مستشاراً قانونياً ذو مرتبة رفيعة ومكانة عالية في الدولة، تعرّف على أختي أثناء مناقشتها لرسالة الماجستير في الحقوق، وقد كان أحد أصدقاء أعضاء اللجنة العلمية لرسالتها، أعجب بشخصيتها والطيبة التي على محياها، وثقافتها وطريقتها المؤدبة المتوازنة في حوار أساتذتها والرد على أسئلتهم، ومنذ تلك اللحظة وهو يرسلها ويهاثفها إلى أن تمّ الزواج والارتباط بينهما.

حين يقولون ما بعد الصبر إلا الفرج، فتأكد أنّ هذا الكلام صحيح، فبالرغم من يأسى أختي فرح وفقدانها الأمل في الارتباط إلا أنّ الله عز وجل قد منّ عليها بزواج ذو شخصية فاتنة ورائعة، لبق الحديث، وسيم، وذو حنان كبير، وثناء فاحش، كان يكبرها بخمس عشرة سنة، ومع هذا حين تراه ، تتأكد أنّ العمر قد نسيه ولم يترك أثراً عليه.

وكانت جوري ثمرة هذا الارتباط، وحبّية العائلة، ومدللة الجميع، فهي الحفيدة الأولى على عائلتنا الصغيرة.

فأختي سارة التي تكبرني بست سنوات لم تتزوج، ولم يعد أحد يتقدم لخطبتها، ربما من شدة رفضها للارتباط استجاب لها القدر، ولم يعد أحد يفكر فيها كزوجة.

أمّا أخي سامي والذي يصغرني بسنتين فمنذ أن سافر لم نعلم عنه شيئاً، فقد عزم السفر فجأة دون سابق إنذار لبلد أجنبي للهروب من واقعه وعالمه، ولم نعلم إلا قبل يوم واحد فقط من سفره، أخبرنا أنّه سيسافر غداً ، وأنه لن يعود، وسيواصل معنا دائماً ويخبرنا عن أحواله، ومنذ تلك اللحظة ولم نسمع عنه شيئاً.

وبهذا أصبحت جوري فرحة عائلتنا بعد طول عذاب، وخاصة بالنسبة لي، فقد شعرتُ معها بأحاسيس مختلفة غريبة عني، أشعر بها للمرة الأولى، من فرح لحب لدغدغة مشاعر لسعادة غامرة ورضا وأمل وتفؤل بالمستقبل ورغبة في العيش وتحقيق الذات والصبر ... وغيرها.

كنتُ قد تخرجت من الجامعة وحصلتُ على المرتبة الأولى على كليتي في الفلسفة، وبدأت أحضّر للماجستير ، وبهذا أصبح لديّ الكثير من وقت الفراغ، أقضيه مع جوري.

فأختي فرح عادت لمباشرة عملها بعد إجازة الأمومة التي مدتها ثلاثة أشهر فقط في مجتمعنا، وبهذا كان عليها ترك جوري الصغيرة في أمانتي ريثما تعود من عملها.

وباتت جوري هي شغلي الشاغل، أطعمها وأسقيها الحليب، وأنظفها وأغير لها حفاظتها، وملابسها إن اتسخت، وأهزها وأغني لها أجمل الأغاني لتنام، وألاعبها، وأقوم بتمارين رياضية لها وأسمعها الموسيقى، وأقرأ الكثير من القصص المسلية للأطفال وأدعها تشاهد الصور وتلمسها بيديها الناعمتين وهي تجلس في حضني.

فمنذ أن عقدتُ العزم على بدأ حياة جديدة وتغيير نمط حياتي، لم يعد ما يشغلني سوى صلاتي وحفظي لكتاب الله والدعاء والالتزام بملابسي والاهتمام بالبرامج التربوية والنفسية وقضايا المرأة والطفل، وكنتُ أعمل جزئياً في جمعية لحقوق الطفل، وأحقق ربحاً متواضعاً ، فلم يعد يهمني المال مقابل الرسالة التي عليّ تأديتها في الحياة.

أمّا جوري فكانت وظيفتي الكاملة منذ الصباح للمساء، فمنذ عودة فرح للعمل لم تعد تهتم بجوري كالسابق، فشددتها مغريات الحياة وشهواتها، فمن العمل إلى الاستمتاع بصحبة الأصدقاء، إلى السهر مع الزوج، والذهاب في النزاهات، وبهذا تخلت أختي تماماً عن تربية جوري والاعتناء بها، فلا تراها إلا وهي نائمة، حينما أحملها وأضعها في سريرها بمنزل أختي.

وفي الصباح تحملها أختي إليّ وهي نائمة، وهذا جعل العلاقة بيني وبين جوري تكبر وتنمو كما تنمو هي أمام ناظري، شبراً بشبر، فزاد حبي لها، وأزهرت في قلبي عشقاً لا ينضب، ومرّت الشهور والسنين لتصبح جوري ابنتي التي لم ألدّها، أمومتي التي لم تتحقق.

فارتبطت بجوري ارتباطاً روحياً لا دمويّاً ولا وراثياً، وتعلقتُ بها وتعلقت بي، وكانت تناديني أمي، ومهما حاولت لا تستطيع أن تناديني خالتي، فكنْتُ بنظرها الأم التي لم تحملها في رحمها، الأم التي لم ترضعها، لكنني كنتُ الأم التي أحببتها ورعتها، واهتمت بها في مرضها وفي عافيتها، شاركتها أفراحها وأحزانها، ألمها وسعادتها.

ترعرعت ما بين أحضانها، كانت أول كلمة تنطقها وأنا أمامها أحفزها وأشجعها، كنتُ إلى جانبها وهي تحبو لأول مرة، وهي تقف وهي تمشي، تمثّلت حركاتي وتصرفاتي وكلماتي، وباتت نسخة طبق الأصل عني.

كبرت على يديّ، ولم تكن تشعر بالأمان إلا وهي بحجري أهددها لها وأطبب عليها.

كانت فرحة عمري وأمل حياتي ونور الأمل الذي أصبح به وأمسي عليه، نور عيني التي أرى بهما، باتت كل حياتي بكل ما للكلمة من معنى، وأحاسيسي كلها، وشعرتُ معها بأومة كاملة، وتحركت مشاعري وغرائزي، وبتُّ أشعر بأنوثتي وبرحمي وبهرمونات الأنتوية وبغرائزي.

وهنا أستشهد بقول الدكتور عائض القرني في الأم:

أكبر وأنا عند أمي صغير، وأشيب وأنا لديها طفل، هي الوحيدة التي
نزفت من أجلي دموعها ودمها، نسيتني الناس إلا أمي، عَنِّي الكل إلا
أمي، تَغَيَّرَ عَلَيَّ الْعَالَمُ إِلَّا أُمِّي، اللهُ يَا أُمِّي: كم عَفَتِ الْمَنَامَ يَوْمَ غَبْتُ
!وَكَمْ وَدَّعَتِ الرَّقَادَ يَوْمَ مَرَضْتُ ! اللهُ يَا أُمِّي : إذا خَرَجْتُ مِنَ الْبَيْتِ
وَقَفْتُ تَوَدِّعِينِي بِقَلْبٍ يَقْطُرُ أَسَى، اللهُ يَا أُمِّي: حَمَلْتَنِي بَيْنَ الضُّلُوعِ أَيَّامَ
الْأَلَامِ وَالْأَوْجَاعِ، وَوَضَعْتَنِي مَعَ أَهَاتِكَ وَزَفْرَاتِكَ، وَضَمَمْتَنِي بِقَبْلَاتِكَ
وَبَسْمَاتِكَ، اللهُ يَا أُمِّي: لَا تَنَامِينَ أَبَدًا حَتَّى يَزُورَ النَّوْمُ جَفْنِي، وَلَا
تَرْتَاخِينَ أَبَدًا حَتَّى يَحِلَّ السَّرُورُ عَلَيَّ، إِذَا ابْتَسَمْتُ ضَحَكًا وَلَا تَدْرِينَ
مَا السَّبَبُ، وَإِذَا تَكَدَّرْتُ بِكَيْتٍ وَلَا تَعْلَمِينَ مَا الْخَبْرُ، تَعْذِرِينِي قَبْلَ أَنْ
أُخْطِئَ، وَتَعْفِينَ عَنِّي قَبْلَ أَنْ أَتُوبَ، وَتَسَامِحِينِي قَبْلَ أَنْ أَعْتَذَرَ، اللهُ يَا
أُمِّي: مَنْ مَدَحَنِي صَدَقْتَهُ وَلَوْ جَعَلَنِي إِمَامَ الْأَنَامِ وَبَدَرَ التَّمَامَ، وَمَنْ ذَمَّنِي
كَذَبْتَهُ وَلَوْ شَهِدَ لَهُ الْعَدُولُ وَزَكَّاهُ الثَّقَاتُ، أَبَدًا أَنْتِ الْوَحِيدَةُ الْمَشْغُولَةُ
بِأَمْرِي، وَأَنْتِ الْفَرِيدَةُ الْمَهْمُومَةُ بِي، اللهُ يَا أُمِّي: أَنَا قَضَيْتُكَ الْكَبْرَى،
وَقَصَّتْكَ الْجَمِيلَةَ، وَأَمْنَيْتُكَ الْعَذْبَةَ، تُحْسِنِينَ إِلَيَّ وَتَعْتَذِرِينَ مِنَ التَّقْصِيرِ،
وَتَذُوبِينَ عَلَيَّ شَوْقًا وَتَرِيدِينَ الْمَزِيدَ.

فليست الأم التي حملت ووضعت، بل الأم التي ربت وسهرت وبكت
وفرحت وتعبت وتألمت، بل الأم التي تستشعر حزن ابنها وفرحه، بل
الأم التي تضحك مع طفلها رغم حزنها، تلعب معه رغم تعبها، تسهر
على راحته رغم مرضها، وهكذا كنتُ لجوري وكانت هي بالنسبة لي
النعمة المقدسة والهبة المعظمة والفرحة الكبرى والسعادة الغامرة.

لكن دوام الحال من المحال، ولم تكف يد الحياة عن ضربي وإيلامي،
لتنهال علي بأقسى عقوبة يمكن أن ينالها المرء، لتحرمني من أمومة
مؤقتة، ولتعاقبني على ما مضى، وتحيل نهاري لليل حالك السواد،
وتمحي بممحاتها جميع ألوان الحياة بنظري، فتصبغها بلون أبيض
شفاف.

حيثُ دبّت الغيرة في قلب أختي فرح، غيرة على زوجها جلال مني،
بعد أن وجدت ما بيننا من انسجام بسبب غيابها المتكرر، كان انسجاماً
مضمونه التفاهم والاحترام والمودة الأخوية، كان يقدر اهتمامي بابنته،
وهذا ما دفعها لتقطع الصلة وتزيل الرابط الذي قد جمعنا بداية وهو
جوري.

فقررت تغيير مكان عملها والانتقال للعمل في محافظةٍ أخرى،
وأصرت على جلال ليتخذ لها مسكناً في تلك المحافظة، وهكذا باتت
جوري بعيدة عني وعن ناظري.

كان الأمر بمثابة تجريد أرض من خضرتها وتركها يابسة محطمة غير
نافعة، لا تصلح لا للزراعة ولا للسياحة.

أرضٌ بور لا يهتم بها أحد ولا يلتفت إليها أحد، وهذا ما أمسيتُ عليه
بعد فراقني لطفلي الصغيرة.

كان يوم الفراق وسفر عائلة فرح يوماً حزيناً، كانت تمسكُ بثوبي
وترفض الذهاب مع والديها، وهي تصرخ وتبكي وتشدّني وتناجيني
لأسمح لها بالبقاء معي، ظناً منها أنني من أريد إبعادها عني.

في تلك الأثناء نرف قلبى قبل عىنى؁ وغانفتها عناقاً مطولاً؁ وأنا أهدهل لها كعادتى حىنما تكون حزىنة؁ وأطمئنها أننى سأتى لزىارتها دائماً وأننى لن أفارقتها أبداً؁ وأنّ الحىاة تضطرنا لاتخاذ قرارات تبدو فى بادئ الأمر صعبة وقاسىة لتكشف لنا أهمىتها.

لكّتها لم تهدأ ولم تطمئن؁ كما كنتُ أنا ملتاعة عىلها؁ أتمنى لو أننى أستطىع الإبقاء على هذا الحزن الدافى؁ فأنا بحاجته أكثر من جورى نفسها؁ فكم من حزنٍ مررت به ولم أجد من يواسىنى وىهدأنى وىعانقنى؁ لم أجد من يضمنى بقوة لصدره؁ وىعصرنى بحبه وحنانه؁ وىبقىنى على حجره.

شممت رائحتها للمرة الأخرىة؁ فلم أعد أراها بعد ذلك الوىوم أبداً؁ وكاننى ارتكبتُ جرماً أعاقب عىله بأقسى من الإعدام.

وهكذا باتت أىامى كلها متشابهة؁ فلا شروق ولا غروب؁ لا نوم ولا صحو؁ لا كلمة أمى تهز مشاعرى؁ ولا صوت ضحكة جورى التى لم تفارق أذنى؁ لا شىء.

وعدتُ لشقائى؁ فاعتزلتُ الحىاة بكل مغرىاتها؁ لا طعام ولا شراب؁ حتى كدت أهلك.

إلى أن رأىتها؁ كنتُ أسىر فى الشارع بلا هدف وبلا سبب؁ أفكر فى جورى؁ وأشعر أنها معى تمسك بىدى وتطلب منى اصطحابها للحدىقة العامة؁ أو تطلب منى شراء شوكولا تحبها؁ أو تركض أمامى وتطلب منى اللحاق بها؁ فأسمع ضحكتها وأرى وجهها فى مخىلتى يشع نوراً

وجمال، فأبكي وتحرقني دموعي فأدعها تجري على وجهي، وأعدو معها مسرعة متألّمة، أرغب في الصراخ لكن يمنعي الخوف من نظرات الآخرين، أرغب في العويل لكن يمنعي الخجل.....

وما بين ضحكٍ على ذاكرة وبكاءٍ على حاضر، رأيتها أمامي شامخة مشرقة مضيئة، حركت مشاعري، وكأّتها شعرت بي أناديهما فالتفتت لي، وابتسمت. كانت تمسك بحقيبتها وتريد صعود الحافلة، كان شعرها يتطاير بفعل الهواء، واذ بها تدير وجهها لتلتقي عيني بعينها وفكري بفكرها، حدثت نفسي: يا إلهي ... إنّها هي،... لا شكّ في ذلك، ففركتُ عيني وركضت باتجاهها لكنني لم ألق بها إذ أنّها تبخرت ولم أراها.

أخذت أسائل نفسي: هل ما رأيتُه حقيقة.... أم أنّ خيالي هو من صوّر لي هذا، هل عيني قد تشوهنا بفعل الدموع فلم تبصرا بشكلٍ جيد... أم أنّ عقلي قد مسّه الجنون.

إنّها بطلتي " ليدي " صاحبتني في نومي وصحوي، صورتي التي أتمناها.

عدتُ للمنزل كالمجنونة، حدثتُ والدتي وأختي عمّا شاهدته، فاستهزئت مني سارة كعادتها، أمّا أمي فقد بدا الانزعاج عليها، ولم ترغب في متابعة الحديث، انسحبت بهدوء وذهبت لتنام.

كانت لقطة غريبة، لكنّها أعطتني أملاً للحياة، لأنني وجدّتها ضالتي ووجعي، فرحي وحزني، فكثيراً ما شعرتُ بأنني أعيش حياتين بجسدين متشابهين، كل جسد يبيئ للآخر فرحه وحزنه، رضاه وسخطه، ألمه وعذابه، نجاحه وفشله.

وكثيراً ما رأيت أماكن لا تخصني، أماكن غريبة غير مألوفة أشعر بأنني أعرفها جيداً، ووجوه أعرفها ولا أعرفها، ومواقف مررتُ بها ولكنني في الحقيقة لم أختبرها.

كنتُ أشعر بأنني مجزأة بروحين وبشخصيتين، لكل منهما أفكارها وأماكنها ومواقفها، وذاكرياتها، وما شعوري بالألم دون مرض، وبالحزن دون سبب، وبالانفعال دون مبرر، وما عجز الأطباء عن معرفة سببه إلا ما رأيته وما أكدّه لي اليوم، أنّ لي أختاً توأم، تشبهني في المضمون، في المشاعر والأحاسيس، أفرح لفرحها وأحزن لحزنها، توأمًا غير حقيقي.

رؤيتي لها في الطريق أثارت ذكرى منسية لديّ وأنا طفلة، أثارت حديثاً سرياً كان يقال بين والديّ في الخفاء، أذكر أنني كنتُ في الخامسة من عمري حين سمعتُهما يتحدثان.

وهذا ما أثار شكوكي وزاد من حقيقة ما رأيته اليوم، أيقظتُ والدي وبثتُ أناجيبها أن تقول لي الحقيقة، وأعدتُ لها حديثاً قد قالته منذ سنين، ورغبتها في ضياعي مقابل بقاء أمنية معها، أجل لقد تذكرتُ اسم توأمي، إنّها أمنية، وهنا انهارت والدي وبدأت بالبكاء والنياح وكأنّها تلقت للتو خبر وفاة عزيزٍ عليها، روت لي القصة كاملة كما ذكرتُها لكم سابقاً.

أخذتُ أؤكد لها أنّ أمنية ما زالت على قيد الحياة وأنني قد أريتها، وأنّها رفيقتي في أحلامي وصاحبة خيالاتي، وصديقة مغامراتي، وكنتُ كلّمًا وصفتها لأمي تيقنت من أنّها أمنية، بجمالها وسحرها، فلامحها مميزة ولا يمكن للعين أن تخطوها.

وبالرغم من أنّها كانت الأجل، إلا أنّني بتّ أرغب في رؤيتها مجدداً في ضمها، في إخبارها بكل ما جرى لي، في لمسها، في الارتواء بحضنها.

كم تمنيتُ رؤيتها لأسرّ لها بكل أسرارِي، وبكل مخاوفي، لأؤكد لها أنّها كانت معي دائماً ولم تفارقني لحظة.

وما التفاتها لي إلا دليلاً على أنّها عرفتني لكنّها فضلت الابتعاد عني، خوفاً عليّ ممّا هو أشد.

وبدأت بالبحث عنها، منطلقاً من المكان الذي أبصرتها به، ممسكةً بصورة رسمتها لها في مخيلتي، حاولت قدر الإمكان تصويرها كما هي، وان فالتني الدقة والجودة، وكنتُ أسأل عابري الطريق عنها، فيحسبونني مجنونة أو ممسوسة بجن أو سحر.

لم يهتم أحد بي أو بالصورة التي أشدّ عليها بيدي، وبانت توأمي حديثي في جميع أوقاتي مع أهلي وأقربائي وجميع معارفي.

ولم أشك للحظة أنني سألقاها قريباً، وسيكون هذا اليوم الذي ألمم فيه شتات نفسي الضائعة المتبعثرة.

إنّها أمنية، وهنا انهارت والدتي وبدأت بالبكاء والنياح وكأّتها تلقت للتو خبر وفاة عزيزٍ عليها، روت لي القصة كاملة كما ذكرتها لكم سابقاً. أخذت أوكد لها أنّ أمنية ما زالت على قيد الحياة وأني قد أريتها، وأنّها

كانت رفيقتي في أحلامي وصاحبة خيالاتي، وصديقة مغامرتي، وكنْتُ كلّمًا وصفتها لأمي تبيّنت من أنّها أمنية، بجمالها وسحرها، فلامحها مميزة ولا يمكن للعين أن تخطأها.

وبالرغم من أنّها كانت الأجل، إلا أنّني بتّ أرغب في رؤيتها مجدداً في ضمها، في إخبارها بكل ما جرى لي، في لمسها، في الارتواء بحضنها.

كم تمنيتُ رؤيتها لأسرّها بكل أسرارٍ، وبكل مخاوفي، لأؤكد لها أنّها كانت معي دائماً ولم تفارقني لحظة.

وما التفاتها لي إلا دليلاً على أنّها عرفنتني لكنّها فضلت الابتعاد عني، خوفاً عليّ ممّا هو أشد.

وبدأت بالبحث عنها، منطلقاً من المكان الذي أبصرتها به، ممسكةً بصورة

رسمتها لها، حاولت قدر الإمكان تصويرها كما هي، وان فانتني الدقة والجودة، كنْتُ أسأل عابري الطريق عنها، فيحسبونني مجنوناً أو ممسوسةً بجن أو سحر.

لم يهتم أحد بي أو بالصورة التي أشدّ عليها بيدي، وباتت توأمي حديثي
في جميع أوقاتي مع أهلي وأقربائي وجميع معارفني.
ولم أشك للحظة أنني سألقاها قريباً، وسيكون هذا اليوم الذي ألمم فيه
شئنا نفسي الضائعة المتبعثرة.

يوماً كان مشهوداً

في المدرسة يعلمونك الدرس ثم يختبرونك، أما الحياة فتختبرك ثم تعلمك الدرس.

"الوطن ليس عنواناً. الوطن هو حكاية تبدأ ولا تنتهي، تُروى بلهجة الطفولة، وتُنسى بلغة المنفى. تهجرت من بيتي فحملت بيوتاً في عيني، كل منها يبكي على الذي قبله." (من رواية "عاند إلى حيفا" لغسان كنفاني)

"الذمار ليس عندما تنهار المباني، بل عندما تسكت الأصوات التي كانت تملأها. عندما تصير طاولة الطعام ذكرى، لا خشباً. عندما يصير البيت فكرة، لا جدراناً." (من رواية "الطريق" لكورماك مكارثي)

"الفقد أمام العينين يترك ندبة مختلفة. كأنك تشاهد جزءاً من روحك تُنتزع من جسدك، وتترك عاجزاً عن الصراخ، لأن صراخك سيكون اعترافاً بأنه لن يسمعك أبداً." (من رواية "الخب في زمن الكوليرا" لغابرييل غارثيا ماركيث)

أمي: " أمينة ، هيا استيقظي من النوم ... سوف تتأخرين ... وسيفوتك موعد انطلاق الحافلة....."

نهضتُ مسرعة فزعة ... لم أنم ليلة البارحة ، وكنتُ قلقة ومتوترة، فلم تغفل عيني سوى ساعة واحدة فقط.

جهزتُ نفسي وخرجتُ مسرعة، وانتظرتُ عند موقف السيارات ما يقارب نصف ساعة أو أكثر حتى وجدتُ نقلاً إلى منطقة البرامكة، وهي المكان الذي ستنطلق منه حافتي المتجهة لمكان عملي.

فاليوم : 15/4/2014

فالتواريخ قد أصبحت مهمة في حياتي منذ هذه اللحظة، لذا سأذكرها لكم بدقة.

اليوم هو يومي الأول في مكان عملي الجديد، فقد عينتُ مدرسة في كلية الفلسفة في محافظة القنيطرة.

وهذه المحافظة تبعد عن دمشق مدينتي ومكان سكني حوالي (87) كيلو متر، وكان عليّ الالتحاق بالحافلة المخصصة لموظفي تلك الكلية.

وصلتُ قبل أن تنطلق الحافلة بدقة واحدة فقط، كنتُ ألهث من شدة التعب جراء ركضي مسافة طويلة.

فموعد الانطلاق المقرر في الساعة السابعة صباحاً، دخلتُ الحافلة وسلمتُ على جميع من فيها، رغم أنني لم أعرف أحداً منهم، فالوجه جديدة علي، بعضها ناعس .. وبعضها الآخر ناغم.... والآخر متشائم، والباقون ما بين نائم وشاخر.

حدثت نفسي قائلةً: يبدو أنهم مثلي ، لم يستطيعوا النوم ولم تغفل عيونهم قيد أنملة ليلة البارحة.

انطلقت الحافلة مسرعة واجتازت العديد من الأماكن والمناطق ومررنا بجبل الشيخ، وكم كان منظره مهيباً بشموخه ولحيته البيضاء التي تكسوه، رغم أنّ الجو كان ربيعياً.

لم أشعر بنفسي إلاّ وأحدهم يوقظني ويقول لي:

" لقد وصلنا ... الحمد لله على السلامة دكتورة."

حدثت نفسي قائلة:

" يا إلهي يبدو أنني قد نمت على الطريق... أرجو من الله ألاّ أكون قد تریلث كعادتي في المنزل حين أكون نائمة، تفقدت وجهي وملابس .. وشكرتُ الله أنّها لم تكن مبتلة."

التفتُ لمن يحدثني كان رجلاً في الستينات من عمره تقريباً، أشيب الشعر قليله، يكح كلما تحرك، ويبدو أنّه بالكاد يستطيع التقاط أنفاسه، فشكرته ونزلت من الحافلة.

كان المبنى حديث الولادة، فلم يمر على إنشائه سوى سنة واحدة فقط ، كنتُ سعيدة برويته، كان الأثاث نظيفاً والمدخل كبيراً، وله ثلاثة أبواب، وعلى واجهة المبنى لافتة كبيرة من الحجر محفورة، ومكتوب عليها اسم الكلية:

كلية الفلسفة الحديثة

ويحيط بالمبنى الأشجار من جميع الجهات وأعشاب خضراء مقلّمة بطريقة جميلة، وبحيرات متفرقة من العشب والورد الأبيض والزهري.

استنشقتُ الهواء الذي لفق وجهي وأنا أقف أمام باب الكلية لأول مرة، كان شعوراً رائعاً.

دخلتها وإذا بي أرى صرحاً ضخماً مشيِّداً بطريقة أخاذة، فالبهو واسع ومزخرف ويحيط به عضائد ضخمة من الأحجار الإسمنتية. وكأنها حرس تقف لحمايته وتحملُ عرش الملك الذي يعلوها.

هذا العرش هو مجموعة من الطوابق المتتالية فوق بعضها البعض، مليئة بقاعات واسعة ومدرجات أنيقة، وكل قاعة متهيئة بأجهزة إسقاط وأرائك حمراء مخملية، ومساند فضية لامعة ولوح كبير أبيض اللون. كتبت على كل قاعة رقمها: الأولى ... الثانية وهكذا.

صعدتُ الطوابق الواحد تلو الآخر حتى وصلتُ لطابق العمادة كما يسمونه، وكان موزعاً بالعديد من الغرف.

فعلى اليسار تجد غرفة كبيرة واسعة تحتوي غرفة للضيافة بطاولة بنية كبيرة الحجم مستطيلة الشكل، وكراسي بنية عديدة صفتُ على جانبيها بالتساوي.

وفي المنتصف طاولة فخمة وضعت عليها مجموعة من الأوراق والورود والهواتف، ثم في منتصفها لوحة مزخرفة شيّد عليها اسم: العميد: الدكتور رأفت علي، وكان هذا اسم عميد كليتنا.

أما الغرف الأخرى، فأحداها غرفة نائب العميد ولا تقلُّ مهابةً عن غرفة العميد، أما على الجهة اليمنى فتقع غرفة السكرتاريا وغرفة التصوير وغرفة المحاسبة وغرفة المهندس.

وفي المنتصف تجد غرفة واسعة مليئة بكراسٍ وطاولات، تشكل مكاتب متفرقة، على كلٍ منها لافتة مكتوب عليها اسم الدكتور فلان إحداها د. رشا والآخر د. علي ...

كنتُ أقرأ كل لافتة حتى توقفت والدهشة تملؤني كان هناك مكتبٌ وضع عليه لافتة مكتوبٌ عليها اسمي: د. أمينة التقوى

حدثت نفسي: "يا إلهي"

لم أصدق ما رأيته عيناى إنني الآن معترفٌ بي كأستاذة لهذه الكلية. جلستُ وراء مكنتى الخاص، وبدأتُ أكتشف كل جزءٍ فيه، فتحتُ جميع الأدراج، وكأني طفل يكتشف لعبته الجديدة لأول مرة حين يراها. ومن ثم بدأت الوجوه تتهافت للغرفة، وكلُّ منهم يعرف بدوره أن يجلس، ويعرف مكتبه.

وبدأوا يتحدثون بصوتٍ مرتفع ... إحداهن تقول: "دكتور علي ما أريك أن نتحدث إلى العمادة بشأن تجهيز مكاتبنا بأجهزة حاسوبية خاصة"

فيرد عليها الطرف الآخر: "لا أعتقد د. رشا أن ميزانية الكلية تسمح بهذا"

ثم يتكلم آخر: "تريثوا في طلباتكم، علينا أن نجهز قائمة بالأشياء الضرورية التي من الممكن أن تؤمنها لنا الكلية."

ويبدو أن الدكتورة رشاد قد انفعلت فقالت: "وما هو أهم من جهاز لابتوب نحضر عليه محاضراتنا وأبحاثنا."

وهكذا ما بين صد ورد وسؤال وجواب تعالت الأصوات، وكالعادة كما في كل مجلس لا يخرج أصحابه بأي قرار ولا يتم الاتفاق على شيء.

ثم دخل علينا فجأة شاب صغير في العشرين من عمره بسيط الملبس والحديث، وقال لنا:

"حضرات تجهزوا ... موعد الاجتماع سيبدأ بعد عشر دقائق في قاعة الاجتماعات، ترجو العمادة منكم عدم التخلف."

ومن ثم استأذن وانصرف ... كان مؤدباً في حديثه معنا وقد سرّني ما ألقى حديثه من مهابة وهذا أشعرنى بالرضا وربما نوعاً ما بالغرور.

فأنا الآن أحتل منصباً، يبدو أنه يضيفي على الشخص قيمة ومهابة خاصة.

غادرنا جميعاً الغرفة وتوجهنا لقاعة الاجتماعات، وسرّ في المؤخرة،

خاصةً وأنا لم أكن أعلم أين تقع هذه القاعة، وكذلك لم أرغب أن أكون أول الحاضرين.

وحين وصولنا للقاعة، كانت تبدو رائعة بفخامتها، فالجدران مزخرفة ومزينة بشعارات رنانة مثل:

من قال لا أعرف قلت له تعلم نابليون
بونابرت..... وغيرها.

وهناك تمثال يقبع في زاوية الغرفة يمثل كتاباً مفتوحاً يخرج منه شعاع نور، وعلى السقف وزعت الأضواء على شكل مجموعات، كل مجموعة تمثل ما يشبه القلم.

أما الستائر فكانت بلونٍ أقرب للأحمر القاني أو " الخمري " في لهجتنا المحلية، منسدلة على الجانبين تهتز بفعل الريح.

وفي المنتصف وضعت أكبر طاولة رأيتها في حياتي، كانت بلونٍ أسود، أما الكراسي فكانت مغطاة بقماش زيتي وضعت عليه وسادة باللون الأسود، كان يفوق عددها الخمسين كرسيّاً موزعة على جانبي الطاولة.

جلستُ على إحداها وتهافت الجميع للدخول، إحداهنّ ترتدي بنطالاً واسعاً أسود اللون وكنزة خضراء ذات كمين وشعرها معكوفاً للخلف على شكل دائرة.

وأخرى ترتدي تنورة بيضاء تصل لركبتها وكنزة حمراء اللون بدون أكمام. وآخر يرتدي بذلة رسمية سوداء بربطة عنق رمادية.....
والعديد العديد من الأساتذة رجالاً ونساء.

جلس الجميع بجوار بعضهم البعض، كنتُ صامتة لا أعرف أحداً، التفتُ لأرى من بجانبني كانت أستاذة جميلة الطلعة تبدو في أواخر العشرينات من عمرها، ذات بشرة بيضاء يتخللها بعض النمش وعينين سوداوين وشعرٍ

أسود فاحم اللون، وترتدي كنزة صفراء اللون طويلة وبنطال أسود ضيق من الأسفل، تعرّفتُ عليها وتبادلنا أطراف الحديث.

أخبرتني أنّها التحقت بذه الكلية قبلي بسنة واحدة فقط وأنّها متزوجة ولها طفلين أحدهما اسمه قيصر والآخر مجد.

مرّ الاجتماع ببطء كبير شعرتُ معه بالملل، وبعد انتهائه واتخاذ قرارات شكلية أو ورقية لا يتمّ تنفيذها في الأغلب على أرض الواقع كما في كل اجتماع، بدأ الجميع بالتحرك نحو العميد ومصافحته ثمّ الخروج من القاعة، فتحرّكتُ بدوري وصافحتُ العميد وعرّفته على نفسي وأني قد التحقتُ حديثاً بالكلية.

تتالت الأيام عليّ يوماً إثر يوم، وتتالت الأسباب، وما كان يبهرني في

البداية بدا شيئاً عادياً ومألوفاً لاحقاً ... وأحياناً كان يبدو خانقاً.

فالطريق للكلية أصبح عبئاً إضافياً يثقل روعي بعد أن كان بمثابة فسحة وتفرّغ عن النفس، ولم تعد المحاضرات تسعدني كما في السابق، فقد أصبحت كواجبٍ عليّ تأديته فقط دون محبة.

فالحدود والخطوط التي وضعت لنا كأسانذة في الكلية جعلتني أشعر بأنني مقيدة لا يمكنني التصرف بحرية حتى أثناء محاضرتي، فالكتاب المطلوب إعطاؤه للطلاب كان قديماً للغاية في التسعينات وبعض معلوماته مشكوك في صحتها، كما أنّنا لا يمكننا استبداله أو إضفاء محاضرات إضافية عليه، أمّا طريقة الإعطاء فقد كانت بأمرٍ من العمادة، ليكون منهجنا واحداً في الإعطاء، هكذا كان يقول العميد في كل مرة تناقشنا فيه بأهمية تغيير طريقة الإعطاء وفقاً لطبيعة المادة وشخصية المحاضر.

وليس هذا فقط، لتأتي اعتراضات الطلاب وتزيد الأمر سوءاً، اعتراضات على الوظائف، وعلى كم المعلومات المعطاة في المحاضرة الواحدة، وعلى طبيعة الأسئلة ونوعهاالخ.

كنّا كأساتذة تحت رحمة الطلاب يسيروننا كيفما يشاؤون، وردة فعل العمادة تأتي لصالح الطلاب دائماً، وكأننا في مطعم ونقدم وجبة لم تعجب الزبون ليأتي مدير المطعم ويلوم ويقول: الزبون دائماً على حق.

وما كنتُ أشعر به تجاه هذه المهنة من هيبة وقيمة تبخر بغضون أسابيع قليلة فقط، وقد أكدّ شعوري هذا رؤيتي لبعض الأساتذة وهم يرتشون خلسة من خلال السماح لأنفسهم بأخذ قروشٍ قليلة يضعها لهم الطلاب ما بين صفحات الأبحاث والوظائف المقدمة له، إمّا ليحصلوا على علامة مرتفعة أو تمهيداً لنجاحهم في الامتحان.

وهذا كله جعلني أكره مهنتي وألعن الساعة التي عيّنتُ بها في هذه الكلية.
فلا احترام بل فوضى..... ولا تعليم أو تعلم

وهكذا بات عملي شيئاً إجبارياً عليّ إنهاؤه وبسرعة كي أشعر بالراحة. وكانت ولاء هي الهدية الوحيدة التي قدمها لي عملي الجديد.

في الأول من شهر تموز 2014 اتبعت دورة مجانية للغة الإنكليزية في معهد اللغات مدتها ثلاثة أشهر بمدينة دمشق تمّ ترشيحي لها من قبل الكلية، وهذا بالتالي سيبعدني عن أجواء الكلية ومشكلاتها لفترة من الزمن.

وفي يومي الأول في هذه الدورة، التقيتُ بأستاذة في الآثار تدعى " يارا " وأصبحتنا صديقتين مقربتين، تسرُّ إحدانا للأخرى بكل شاردة وواردة.

فيارا تكبرني بسنة واحدة وقد عملت في مجالات عدّة قبل قبولها كأستاذة في كلية الآثار منها: مدرّسة لمادة التاريخ في مدرسة الحضارة، ومشرفة على الفلكلور في المسرح الوطني وغيرها.

كانت خبرتها بالحياة كبيرة، وثقافتها واسعة، والأجمل من هذا وذاك أنّها كانت نهمة للقراءة، تحبّ الروايات والقصص، وتحبّ الأدب الروسي بشكلٍ خاص.

وهذا ما جمع بيننا، فكانت معظم أحاديثنا تدور حول أحداث رواية ما ، أو رأينا الخاص في رواية أخرى أو شخصياتها أو مضمونها و.....إلخ.

كان حديثي معها يشعرني بالسعادة، ويحفزني أكثر للمطالعة.

بدأت الزيارات بيننا تتعدّى الكلية لتنتقل للمنزل، فتعارفت أسرطانا على بعضهما البعض.

وأصبحنا عائلة واحدة، تجمع بينها ظروف متشابهة وآلام إلى حد ما متماثلة.

فوالدها قد توفّى بجلطة قلبية قبل عشر سنوات، وأجواء طفولتها مليئة بالفقر والحزن مثلي.

وهذا كله قد قارب فيما بيننا لدرجة كبيرة.

لم تكن يارا متزوجة وكذلك أنا، وكنا كل يوم نتحدث عن أسباب ازدياد العنوسة في مجتمعنا المحلي، فقد كثرت أعداد الفتيات مقابل الفتیان مع مغادرة الكثير من شبابنا لخارج الوطن وطلبهم للهجرة بشكلٍ شرعي أو غير شرعي.

ربما الأسباب كثيرة لكنّ النتيجة واحدة عنوسة إجبارية دائمة إمّا لفقر أو لهجرة وإمّا لجمال مفقود وغيرها...

تقدّم لخطبة يارا بعد أن بلغت سن الزواج في مجتمعنا وهو الخامسة عشرة تقريباً، أشخاص مختلفين، منهم من يكبرها بعشرين سنة، ومنهم من لا يحمل شهادة جامعية وآخر ذو طبعٍ قاس.

لكنّها لم تجد فيما بينهم رجل واحد يستحق أن يشاركها حياتها، أمّا أنا فلم يتقدّم لخطبتي سوى شخصين أحدهما يصغرنني بأربع أو خمس سنوات، ليس لديه عمل ولا أمل ولا رغبة بالحياة، بالإضافة إلى أنه قد طلبني رغماً عنه مدفوع برغبة أسرته في أن أكون زوجته وليس رغبته هو.

أمّا الآخر فقد كان يكبرني بخمس عشرة سنة واسمه " رشيد " وهو زميلي في الكلية، وقد كان طلبه غريباً، وسأعرض لكم ما دار بيننا من حديث في ذلك اليوم.

كنتُ في الكلية أجهز محاضرتي التي سألقها على الطلاب، حينما دخل غرفة المدرسين الدكتور رشيد وقال لي.

د. رشيد :

"دكتورة أمينة ... هل يمكنني أن أتحدث معك بموضوع خاص."

أنا: "تفضل ... ما الموضوع."

د. رشيد: "إنّني متزوج ولدي أربعة أطفال، وأحب زوجتي كثيراً، فهي طبيبة نسائية وماهرة في عملها، أمّا أطفالي فلي من البنات اثنتين، ومن البنين اثنين.

أنا: " الله يحفظهم."

د. رشيد: "شكراً لك... من فضلك لا تقاطعيني."

أنا: "عفواً ... تفضل."

د. رشيد: "لديّ والحمد لله الكثير من الأطيان والممتلكات والبيوت والشركات والمشاريع الاستثمارية، فقد فتحت مؤخراً روضة للأطفال، وقبلها بفترة بنيتُ مركزاً لتعليم اللغات هنا في القنيطرة."

أنا: "هذا رائع ... ما شاء الله."

د. رشيد: "وأنا لستُ كبيراً، في العمر كما تعلمين الرجال لا تتقدم في العمر، فأنا ما زلتُ في زهرة شبابي."

أنا: "دكتور من فضلك سأتأخر عن محاضرتي... ما الذي أستطيع القيام به من أجلك."

د. ر " لن يحدث شيء للطلاب إذا لم تلقي محاضرتك اليوم. "

أنا: " من فضلك ليس من عادتي أن أتأخر عن محاضرة لي."

ثمّ جهزت نفسي لأذهب، فقال لي: د. رشيد: " حسناً فقط خمس دقائق." أنا: " تفضل."

د. رشيد: " نحن كعائلة أصولنا تعود لمدينة دمشق، فأجدادي من دمشق، ثمّ انتقلوا ليعيشوا في القنيطرة."

أنا: "جميع الناس خير وبركة ... مهما كانت أصول عائلاتهم. د. رشيد: "أنا سأتزوج مرة ثانية."

أنا: "إذا كانت زوجتك السابقة موافقة، فلا بأس."

د. رشيد: "ما رأيك بالزواج المتعدد."

أنا: "بالطبع لا أوافق عليه، لأنه من الظلم أن تشارك زوجتك فتاة أخرى معك."

د. رشيد: "إنها من تدفني للزواج ولا تمنع عليه، حتى أطفالي لا يمانعون ذلك، هل أصحبك لتسمعين بأذنيك."

أنا: "وما دخلي بالموضوع، أنت وعائلتك أحرار فيما تتخذونه من قرارات."

واكتست حمرة قاتمة وجه الدكتور رشيد، فهو كان ذو بشرة شديدة السمرة، وعينين خضراوين، وشعرٍ أسود فاحم، وكان قريباً لي في الطول، وذو صحة جيدة.

د. رشيد: "أرغب في التقدّم لخطبتك، لتكوني زوجتي الثانية، وأريدك أن تعلمي منذ الآن أنني سأطبق الشرع وسأ تزوج أربعة، وأنّ هناك زيجتين بعد زيجتي عليك."

ابتسمت في سرّي والابتسامة امتدت لضحكة لم أستطع كبتها.

كان واثقاً من موافقتي وكأته الزوج المثالي الذي تحلم به كل فتاة، وأكثر ما يضحكني أنني سأكون الرقم 2، حدّثت نفسي: من يظن نفسه، فقاطع صمتي بقوله.

د. رشيد: "ما رأيك، متى ترغبين أن أزور والدتك."

أنا: "على رسلك دكتور رشيد، أخبرت حضرتك أنني لا أحب الزواج المتعدد، حضرتك رجل لا تعاب، لكنني أنا لا أحب أن أكون زوجة ثانية.
د. رشيد: "إذا رغبت سأصحبك لترين منزلك إنّه كالقصر في جماله، تعالي معي."

اعتذرتُ منه واستأذنت بالانصراف فقال لي شيئاً غريباً.

د. رشيد: "أليس الحلال أفضل من الحرام، أم ترغيبين بالحرام."

اضطربت و غضبت ولم أرغب في الرد على شخصٍ مثله، لقد ظننته شخصاً مثقفاً ومتحضراً، ولم يخطر ببالي أنّه رجلٌ منحرف فخرجتُ فوراً من الغرفة ولم أرغب في رؤيته مجدداً، وإن التقيته كنت لا أدير وجهي عليه.

ومرّت الأيام، إلى أن جاء اليوم الموعود، يوماً لا مثيل له غير حياتي وقلبها رأساً على عقب، كان ذلك في الخامس من أيلول 2015.

فلأسرد عليكم ما حدث قبل هذا التاريخ ، ولكن قبل هذا سأعيد شريط حياتي إلى الوراء قليلاً، لتعلموا مقدار الألم الذي كان يكبر كل يوم.

قبل 31/11/2011

كانت فترة هادئة رغم ما بها من توترات ، لفترة من الزمن لم يدم هذا الهدوء وتحول لفترة عصيبة مع ما مرت به البلد من أزمة ومعاناة، بدأت أزمة بلدي في درعا ثم انتقلت لدمشق عاصمة بلدي سوريا، وانتقلت من دوما للغوطة ومن ثم لمنطقتي التي أسكن بها.

في البداية تجلّت معظم الأحداث بإطلاق نار وهجوم تارة وانسحاب تارة أخرى، وإطلاق رصاص من بندقية، وإطلاق مدافع في الهواء وأصوات طائرات حربية تحوم في الأجواء، إلى إشعال حرائق هنا وهناك، إلى أصوات تكبيرات بعيدة تنادي الله أكبر، كنت دائماً ما أقول في قلبي الله أكبر على كل معتدي وظالم، لم ننعّم بالراحة من وقتها، ولم نشعر بطعم الأمان من حينها، بل وحتى لم يغفو لنا جفن من ساعتها، معظم الوقت ونحن خائفون مترقبون ماذا سيحدث؟

في البداية كان الوضع مخيفاً ومقلقاً، ثم تمّ التعود، اعتدنا أصوات الحرب والرصاص والمدافع والصراخ، وأصوات الألم والحزن والخوف والوحدة الرهيبة، حتى إنّنا كنّا نستغرب لماذا يخاف الضيوف ولا يأتون لزيارتنا؟ لا شيء غير عادي في حيننا، فقط الكثير من الرعب والكثير من الموت، لم يكن يسمح لنا بالتجوال حين يحل المساء وتطلق المآذن تكبيرات صلاة المغرب، إنها تكبيرات التوقف عن الحركة والجمود وعدم الخروج من المنازل، وفي الصباح كنّا نغادر بإذن بعد اخبار الحاجز العسكري الكائن أمام حيننا أين سنذهب ولماذا ونريه بطاقتنا الشخصية؟ وأحياناً لم يسمحوا لنا بالمغادرة دون إبقاء البطاقة الشخصية لديهم.

عليك دائماً أن تُفتش وتُسأل وتُسرد ما مررت به من لحظة خروجك لعودتك إلى منزلك، ثم عليك أن تُعلمهم ماذا أحضرت لمنزلك من طعام وخضراوات، بل إن كنت تحمل وزناً زائداً عليك أن تتركه لديهم، لم تكن نعلم ما هو الوزن المثالي الذي يقيسون به حمولتنا وأغراضنا.

كما هناك قواعد في كل مكان عليك أن تتبعتها، فمنطقتنا أيضاً أصبح لها قواعد خاصة مميزة، فالخروج بإذن والعودة بإذن وادخال أي شيء بإذن، ممنوع الكلام كثيراً وممنوع الحركة ليلاً حتى على المساجد.

كل هذا أصبح مع الأيام روتيناً يومياً تأقلمنا معه وتآلفنا معه بل وحتى توحدنا معه، وتبع الأصوات آثار وأفعال مؤلمة وشظايا أصابنتي في رقبتي، وتركت أثراً لا يمحي كلما نظرتُ في المرأة ابتسمتُ وقلتُ الحمد لله ما زلت على قيد الحياة، الحمد لله أن الشظية لم تدخل في رقبتي لكنت مث حينها، ثم تبع ذلك تدمير واحراق لخزانات الكهرباء، ثم قطع لخطوط الهاتف، ثم رمي بمدمعية على بستان يقع خلف منزلنا زلزل كيان منزلنا بل وزلزل قلوبنا ونفوسنا، حينها فقط قررت الأسرة أن تغادر المنزل لبعض الوقت، وبذلك انقسمت عائلتي لفريقين ما بين مؤيد للخروج ومعارض لها، وما بين صدٍ ورد، وعرض ورفض، وجدال وخلاف وتوتر وصراخ، أثرنا البقاء في المنزل دفعاً لمزيد من المشكلات والخلافات، يكفيننا ما نعانيه من حولنا، يكفيننا ما نشاهده بأعيننا، يكفيننا ما نسمعه بأذاننا.

لكن ما فائدة ما نفكر فيه أمام ما يمر حقاً وما شاهدناه حقاً. قبل ثلاثة أشهر
من الحدث العظيم / 5/9/ 2014

كان يوماً كالمعتاد مشمس وشمسه حادة، وكنت أعمل حينما جاءني اتصال من أختي تقول فيه هل لديك ورق مهم لأخذه معنا، يجب علينا الخروج من المنزل، ثم انقطع خط الهاتف ولم تكمل أختي حديثها، ما الذي حدث حينها، أصابني الهلع حتى عدت سريعاً لمنزلي، كان الهدوء مهيمناً على المنطقة، وظلال الرعب في كل مكان، وجناح الخوف يطير فوق سماء منطقتي، كان منظرأ واحساساً غريباً، وجوه مصفرة قلقة صامتة، وحينما دخلت

منزلي وجدت سقفه قد انهار نتيجة تحطم سقف جيراننا نظراً لتذيفة قد دخلت به وأدت لانهيائه على سقفنا، وحائط منزل جيراننا قد انهار أيضاً، أما غسيلنا فكان ينتظر جفافه، لكنّه بدلاً من هذا انتظر تشققه وتلفه كلياً، رمال وصخور وحجارة في كل مكان، وكانت أسرتي قد أعدت العدة للخروج، ونظراً لأننا لا نستطيع أن نستأجر بيتاً آخر، لذا قررنا الذهاب لزيارة لدى أحد الأقارب وأقمنا هناك لمدة أسبوع ورغم حسن المعاملة والترحيب إلا أنّ الفرد يشعر بنفسه ثقيلًا خارج بيته، مهما حاول أهل البيت الذي استضافنا إسعادنا لم ينجح في مساعيه، فقد أنهكنا الخوف، الألم، القلق، الخوف من الغد والمستقبل، رغم أننا نؤمن بقضاء الله وقدره لكننا لم نصل لدرجة الرضا، الرضا بما كتبه الله لنا.

وبعد مضي أسبوع، عدنا لمنزلنا، وكم كان شعوراً مخيفاً حينما رأينا المنطقة تصفّر بها الرياح خالية من السكان ولا صوت يعلو على صوت السكون والحزن، أرض مقلوبة وأخاديدها مغروسة كأنّ آباراً حفرت بها ، بيوتٌ حزينة لرحيل أصحابها ومنطقة مشتتة ضائعة مفعوغة، لا يُرى فيها سوى الأسلحة، وزيّ واحد منتشر في كل مكان، زي عسكري مدجج بكافة أنواع الأسلحة يستجوبك حين تدخل وحين تخرج، لم نعد قادرين على إحضار أي شيء للمنزل.

تتالت الأيام وتوالت المخاوف وأصبح الاستيقاظ صباحاً على أصوات غليظة لمغنين لم يدرسوا فن الموسيقى ولم يتعلموا العزف ولم يرهفوا أسماعهم، أشخاص يركضون حول المنزل وصراخ يزلزل الأرواح.

أصبحنا ننام في غرفة داخلية أبعد ما يمكن عن الخارج، عن جدران المنزل المطلة على الطريق.

أصبح الخوف ملازماً كظلمنا، حيث بتنا نخاف أن نذهب للحمام، فقد نصاب بشيء أو نلقى هدية ملتهبة قد تحرق عضواً ما أو جزءاً من أجسادنا.

كل هذا كان عادياً إلى أن جاء يوم ليس كأني يوم في الخامس من أيلول، حيث كان يوماً مشهوداً.

الخامس من أيلول 2014 يوم حفر في ذاكرة من عاشوه معنا وبقيت آثاره إلى الآن.

يوم لن يأتي له مثيل أبداً ما حييت، سأظل أذكر هذا اليوم حتى الممات.

ليس رغبة مني لأكون ضحية أو لأشعر من حولي بما مررت به ليشفقوا علي، وإنما أكتب لنفسني لرغبة مني أن أقرأ ما كتبت في اليوم التالي.

وإني الآن وايم الله لست حاقدة على أي شخص كان سبباً في تجربتي هذه، ولا ألوم أي يكن، ولا أجتز الماضي، ولكنني أشكر الله كثيراً ، أشكره لأنني الآن هنا وما زلت أستطيع الكتابة وأشعر بالأمان رغم مخاوفي.

في ذلك اليوم وبعد أذان الصبح قمنا للصلاة وجلسنا نذكر الأذكار ونقرأ القرآن.

من عادتي أنام بعد الصلاة والذكر لساعة أو ساعتين، ما عدا والدتنا تبقى حتى شروق الشمس.

حينما أردت النوم وإذ بأصوات تعلو فوق صوت الرصاص وبأرجل تتحرك هنا وهناك وفي كل مكان

ثم أصوات صراخ

وبعد..... هذوء مفاجئ ومرعب، تملكنا الخوف
والرعب لبسنا أي شيء وجدناه أمامنا وقلت لأسرتي: هيا لنجمع أوراقنا
وبطاقاتنا الشخصية وكل ما نملكه بسرعة

وضعت أي شيء وصلت يدي اليه، ومن شدة خوفي لم أعي ما أقوم به،
كنت أرتجف وإذ بطرق على الباب ثم تشتد الطرقات والصيحات،
وتشتد وتشتد.

أفتح الباب لأرى شخصاً يضع عصابة على الرأس ويطلب مني جهاز
الهاتف الخليوي (الموبايل) الخاص بي ... أعطيته ما يريد من فوري،
دون أن أعي ما أفعله أو أسأل المتطفل علينا صباحاً ماذا سيفعل به ولماذا
يريده؟.

ومن ثم سمعنا الصوت يقول هي اخرجوا بسرعة والا (ووجهت البندقية
إلينا) ... وأنتم تعلمون ما الباقي .. فأني روح لا تستطيع مقاومة طلقة، كما
لا تقاوم العين المخرز.

خرجنا مسرعين .. بحذاء أو بدونه لم يعد مهم ، المهم أن ننجو بأرواحنا،
أصبحنا ضيوفاً على منزلنا، وطلب منا مغادرته فوراً، ضيوف طالت
إقامتهم ولم يعد يتحمل من استحلوا المنزل وعدوه منزلهم بقاؤنا فيه.

كنا نرتدي أبسط الملابس بل أقدمها ولم نكن نحمل سوى أوراقنا فقط، كنا
عراة من الأمان، من الدفاء، كنا عراة من الحب، عراة من السعادة
والفرح، إحساس عميق بالهجر والضياع والوحدة.

أخذونا لبيت من بيوت جيراننا وأمرونا بالبقاء ، وهنا تذكرت اللابتوب

خاصتي وأردت الذهاب لأخذه فتحججت لهم أنا وأمي بحاجتنا لبعض الملابس ...

استجابوا لطلبنا وعدنا للمنزل، لم أعرف ماذا أفعل، أخذت اللابتوب وأردت حمل بعض الملابس، ففقدت القدرة على التركيز وفقدت طاقتي ووقفت عاجزة، صرخت بي أمي : هيا ... أمينة ... وجاء الصوت يطلب منا السرعة، خفت كثيراً ،وحملت ما وجدته أمام ناظري وأسرعنا بالعودة، قسمونا لمجموعتين النساء في غرفة والرجال في غرفة حدثت نفسي قائلةً : هل هذا هو دينكم

حين وصلنا إلى المكان الذي قادونا إليه... وجدنا كثيراً من الأشخاص هناك رجال ونساء وأطفال، ووزعنا لمجموعتين النساء والأطفال بغرفة والرجال بغرفة أخرى.

أخذنا ننظر لبعضنا البعض ... منّا من كان يرتدي ملابس نومه، ومنّا من كان بغطاء صلاة على الرأس فقط .. ربما لم يسمح لهم بارتداء شيء، ومنهم من يرتدي قميصاً داخلياً ...

علمنا منهم أنّ زوج إحداهن قتل... وامرأة قتلت لأنها لم ترضى أن تأتي معهم ... وآخرين قد لُفوا بشراشف كانوا ينامون في ثبات عميق لن يستيقظوا منه.....

بالمقابل هناك من يحمل حقائب كبيرة وأكياس كثيرة ... حدثت نفسي قائلة: متى استعدوا وجهزوا أنفسهم، وكأنهم مسافرون لا محجوزون ومخطوفون .

كان هناك من يبكي ويلطم نفسه ... وأغلب الوجوه كساها الدهشة
واعترها القلق والخوف.

والكل يحدثُ نفسه: أي مصير ينتظرنا

كنا نسأل أنفسنا ولم نكن نرفع أصواتنا هكذا أمرنا... فصوت المرأة
عورة ...

كنا نبكي بصمت .. بقلوبنا ... بجوارحنا...

من لديها أطفال تعانقهم وتحيط بهم وكأنها لن تراهم ثانية أو أنها تخشى
عليهم من الغد....

نسمع حركة ونسمع أصوات ونرى أشخاص جدد يأتون بهم إلينا، أصبح
عددنا كبيراً في غرفة ضيقة ... منّا من لم يجد مكانا يرمي عليه همومه
ومخاوفه، فظلّ واقفاً.

إلى أن جاء الصوت وأمرنا بالتحرك ... وهم يقولون لنا: فلتجتمعوا هيا
ولتسيروا خلفنا والبنادق موجهة إلينا...

كنا كالأموات، فالأموات لا تسمع، وإن سمعت لا تتنطق... وإن
نطقت .. خرجت أصواتها بلا حروف وبلا كلمات... فعلنا كما قالوا لنا
وبدأت رحلتنا من هنا.

خرجنا من باب المنزل لنصعد على درج بيت آخر .. لنمر بفجوة كبيرة
خُفرت حديثاً في جدار بيت آخر .. لننتقل من فجوة لأخرى ... ومن بيت
لآخر .. ومن مكانٍ لآخر ... والخوف يعلو والقلق يدوي ... والبكاء
والعويل يسيطر علينا.

كل هذا ونحن مازلنا نمشي ... لفتني شاب يساعد والدته الجالسة على كرسي .. يحاول أن يرفع الكرسي في كل مرة ليدخله في فتحة الجدار وينتبه كي لا يرتطم رأس والدته بالحجارة أو يصيبها مكروه و.. ويكسو وجهه الرضا ... هنا سألت نفسي:

"أي رضا قد منحك إياه الله لتبقى هادئاً رغم كل شيء وكل ما يجري حولنا يثيرنا ويدمينا ... سبحان الله"

إلى أن وصلنا لممرٍ طويلٍ لا أعرفه ولم أراه سابقاً، حيثُ لم نعد نعلم أين نحن ... هل وصلنا للطريق العام ... مع العلم أن بيتنا لم يكن يفصله عن الشارع العام سوى ممرٍ صغيرٍ لا أكثر.

ثم يأتينا الأمر حين وصولنا لمنزل ما: توقفوا وابقوا هنا، ومن لا يدخل يتم إجباره على الدخول إما رفساً بالأقدام أو دفعاً بالأيدي، أو ضرباً بالبنادق والحجارة.

كان المنزل صغيراً وبسيطاً، وصاحبه كانت امرأة مسنة بل طاعنة في السن، ترتدي حجاباً ملوناً وتنورة فضفاضة طويلة وقميصاً كبير الحجم، يكسو وجهها الثآليل، وقد تركت الدنيا خطوطاً للزمن في وجهها.

كانت صاحبة المنزل مرتاحة، وقالت لنا تفضلوا ...

حدثت نفسي: ... هل أضحك أم أبكي .. هل نحن هنا ضيوف ... لا نريد ضيافتكم أعيدونا لمنازلنا .. لم نأت برضانا .

جلسنا فترة هادئين شاحبين حت أتى الصوت تحركوا بسرعة من هنا، وبدأنا المسير مجدداً... أحسب نفسي قمت برحلة حول العالم ... لا أعلم

كيف كان شعوري وشعور من حولي في تلك اللحظة، كُنّا كالدواب التي يسيرها أصحابها وينقلونها من مكانٍ لآخر.

ومن ثم وصلنا ... وصلنا لمعمل كبير كان يصنع المناشف، كان هناك الكثير منها ملقاة هنا أو هناك.

رغبنا بالدخول معاً كل مع ابنه أو زوجه، لكن أتت الأوامر بدخول النساء فقط ومن ثم أخذ الرجال والشباب بعيداً لا نعلم إلى أين.

كانت معنا من بين الجالسات أمّاً ملتاعة على ولدها تخشى عليه، رأيتها والقلق ينهش قلبها، فرغبتُ بمساعدتها ، لذا ذهبتُ إلى أحدهم وطلبت منه أن ترى هذه الأم ولدها الوحيد لا أكثر.

كانت الأم تترجاهم، وأمسكت بيد أحدهم وقبّلتها وتقول له: أرجوك فقط أريد أن أراه.

بالمقابل كان من تمسك بيده كالحجر يبتسم ويضحك مسروراً بذل هذه

المرأة وانكسارها، بعد جدال سمحوا لها برؤيته وأحضره لها كأنه سجين، ثم أعادوه لموضعه بعد أن رآته لمدة دقيقة واحدة لا أكثر بحجة أنّ الاختلاط ممنوع.

حدثت نفسي: "اختلاط من بمن !!... هل اختلاط الأم مع طفلها؟ ... أم اختلاط الزوجة مع زوجها ..؟. أم الأخ مع أخته؟ .. أم ماذا؟ ... حرام عليكم."

جلسنا ساكنين لا حراك، ولا صوت إلا صوت الجوع.

كانت النساء تصرخنَ بأطفالهنَّ كي يصمتوا، وكأنَّ كل واحدة منهن تصب ما بها من خوف وحزن على رؤوس أطفالها.

ورجل طاعن في العمر معه صغيرين ربما هم أحفاده، كان يبدو منهكاً ونظرة القلق تفتك صدره وهو يحاول تهدئتهم .

وأم في حالة نفاس تتلوى من الألم، وقد مرَّ على ولادتها لطفلها خمسة أيام فقط ... خمسة أيام فقط عمر رضيعها الذي يصرخ جاهداً ليقول:

"إنني جائع... وأمِّي ما بين الحياة والموت لا تستطيع أن تطعمني ... ماذا أفعل وما الذنب الذي اقترفته لأعاقب بهذه الطريقة وأولد محروماً من لبن أمي وحنانها، ما ذنبي لأصبح يتيماً...؟؟؟؟.."

أمَّا الأم فقد كانت في حالة صدمة، حيثُ انهارت على الأرض وأصبحت تتعرق وترتعش، حتى أصابها نزيفٌ حاد أودى بحياتها، فارقت الحياة والاطمئنان يملأ وجهها على صغيرها، وكأنَّ ملامح وجهها تقول له: "سأدعك بين يدي من هو أحنُّ عليك مني ... سأدعك بين يدي الله عز وجل."

كانت الجدة ملتاعة على ابنتها، وعلى حفيدها الصغير، الذي ما لبث أن التحق برحال والدته، رافضاً فراقها، سعيداً بمرافقتها.

امتلأت النفوس بالخوف والرعب، من أن نلاقي المصير نفسه، فالصغار سيكون والنساء تصرخ ترجياً وتذلاً قائلين: افعلوا بنا ما شئتم .. لكن لا تدعونا نرى أطفالنا تموتُ أمام أعيننا.

جاء الأمر: اجمعوهم معاً الرجال والنساء في مكانٍ واحد.

يأتي الرجال مسرعين إلينا في المعمل الذي نحن فيه ... لكن تسبقهم أسماك طائرة تحط أمامهم مشكلة فجوةً كبيرةً مخيفةً في الأرض، نائرةً الرمال والغبار والحجارة، فملأت الجو، حيث لم نعد نرى شيء.

أخذنا نصرخ ونصرخ خوفاً منها وخوفاً على رجالنا .. منهم من أصيب ... ومنهم من نجا ... ولكنّ السواد زاد الغباش ومنعنا من رؤية الأحبة.

بدأت غيوم الألم تزول، ودخل بعض الرجال الذين كتب لهم النجاة.

وحين التقت أعينهم بأعين أحبائهم كان عناقاً رهيباً تهتز له الأرض وتفسح له الأبدان، أخذوا يضمون بعضهم ويقبلون ويبيكون معاً ، وقد أثر في نفسي الأم التي ترجتهم سابقاً لرؤية ابنها الوحيد، كانت تصرخ وتتنظر في وجوه الناجين وتقول : أين ابني، أين هو ... بعد فترة دخل ... وكان سليماً معافى .. لم تعرف الأم أتضحك أم تبكي .. لكنه أصبح ذا شبيبة من شدة الغبار والرمل الذين غطيا كل جسده ورأسه.

لقد بكت الأم كثيراً ... وعلمنا لاحقاً أنّ من الذين توفوا جارنا وابنه.. وأنّ آخرين أصيبوا، منهم من أصيب بقدمه ومنهم من أصيب برأسه وغيرهم كثيرون.

هنا اغلقوا علينا الأبواب .. كان باب المعمل كبيراً كأنّه سجن عظيم اختنقتنا كثيراً وبكينا كثيراً .

أغلقت ابواب المعمل علينا ... والخوف عما القلوب ... لا نعرف ما الذي ينتظرنا ... بعد فترة من الزمن فتحت الأبواب ، دخل أحدهم ويحمل معه حفاظات للأطفال وبعض الأطعمة.

كانت هذه الحاجيات قد سرقت من محل لأحد الذين هجروا معنا، ورغم هذا لم يهتم أحدنا بالاهتمام والسؤال حول مصدر هذه الحاجيات، بل إنهم بدأوا يركضون ويتسابقون ويتدافعون ليحصل أحدهم على نصيب أكبر من أجل أطفاله.

واشتعلت نيران الغضب بين الأمهات، من منهم يأخذ كيس غيارات الأطفال أولاً؟؟.

رغم ما بنا ورغم ما أصابنا، لكن في هذه اللحظة، لم يفكر أحدٌ منا إلا بنفسه وأطفاله فقط، أما الآخر فليس مهماً في نظره.

هدأ الأطفال قليلاً بما حصلوا عليه من طعامٍ قليل بعد معارك ضارية، ولكن ما تناولوه لم يسكت أصوات بطونهم الجوعى فعادوا للبكاء.

عرض جارنا عليهم أن يذهب لبيته ويرافقه أحدهم ليحضر ما فيه من طعام للصغار ، وبعد جدالٍ مطولٍ وافقوا.. وكان قد أصيب بشظية في قدمه وبات أعرجاً.

أحضر كل ما استطاع أن يحمله من طعام وخبز .

تهافتت عليه الأيدي والأعين، والتف حوله الصغار .. للحظة وفي خضم هذا نسينا أننا قد خطفنا.

وربما رغبتنا أن تكون هذه وجبتنا الأخيرة، فلنتناولها بصمت، وكانت حصة الصغار هي الأكبر، حيث اكتفى الكبار بقطعة خبز صغيرة.

أخذنا نعدُّ الساعات إلى أن جاءت اللحظة والساعة والدقيقة المشؤمة ، حيث سقطت على جدار المعمل سمكة كبيرة الحجم قسمته نصفين وتناثرت الشظايا وزجاج النوافذ، وكانت كالكساكين تصيب من أمامها ...

غبار ودخان وسواد ورمال . تعانقنا معاً وأمسكنا بأيدي بعضنا البعض، وما إن هدأت حتى صرخ أحدهم، فالتفوا حوله، كان وجهه بلون الدم .. ينزف، ساعدوه وحاولوا اسعافه.

وركضنا باتجاه الباب نريد الخروج، نريد الهرب لأي مكان، لا نريد الموت هنا.

مُنعنا من الخروج وكان جوابهم: أريتم ما فعلوا بكم؟؟، نحن هنا لإنقاذكم.

حدثت نفسي: "تتقذوننا ممن؟ ولماذا لا تسمحون لنا بالعودة؟ .. لم نعد

نريد منازلنا؟ .. نريد فقط العودة لشارعنا لمكان نعرفه وإن كان الشارع العام الذي تطل بيوتنا عليه .. دعونا لم نعد نريد شيء لا بيت لا أثاث لا مال، نريد النجاة بأنفسنا وأطفالنا فقط..... دعونا نتدبر أمورنا، جعلتم منا ضحايا وماذا تريدون منا أيضاً."

كنا واثقين أنهم قد سرقوا بيوتنا ونحن هنا مسجونين في هذا المعمل، لكنهم أصروا أنهم يريدون إنقاذنا وأنهم يحاولون إيجاد طريق لنا بعيداً عن القصف.

ومن ثمّ تركوا لنا الخيار بقولهم: من يريد الموت فليذهب من هذا الطريق..... مشيرين لطريقٍ ربما يوصل للطريق العام.

هنا وقفتُ وتدخلتُ وأخبرتهم قائلةً: "

هيا بنا نحنا مجموعة سننجو معاً"

اقترحت عليهم أن يحمل كلُّ منّا منشفة ويضعها حول رقبتة ورقبة زوجته وعلى كل طفل من أطفاله.

وللحظ كان لون المنشفة أبيض وأزرق.

فقلتُ لهم: "هذه علامة سلام، سيمشي الرجال أولاً ثمّ الأطفال ثمّ النساء في الصف الأخير."

وبعد أن نفذوا ما قلته لهم وشكلنا المجموعة مصطفين كما أشرتُ لهم، شلت حركتنا وتوقفنا عاجزين عن فعل شيء، فخوفنا من أن يغدروا بنا كان أكبر .

لذا سرنا في الطريق الذي أشاروا لنا بأنه طريق النجاة، سرّنا في الطريق الموت والخلص.

أشاروا لنا بالتحرك وبنادقهم موجهة إلينا والابتسامات تملو وجوههم، وأحدهم يلتقط لنا الصور، واحداً واحداً وكأننا نصوّر فيلماً لا نعيش واقعاً مؤلماً. حينما جاءنا الأمر بالتحرك، نظرنا فوجدنا فجوة كبيرة صنعوها بالجدار من خلال مطرقة كبيرة .. ما تسمّى بالمهدة.

سبقنا أحدهم ليكون مرشدنا في رحلتنا الطويلة وأحاط بنا الآخرين منهم.

بدأنا بالدخول فرداً فرداً، فالفتحة كانت ضيقة ولا تتسع لأكثر من شخصٍ واحد، مشينا ومشينا على أرضٍ زراعية ثم أمرنا بنزول نفق حفر في الأرض، لا نعلم متى تمّ حفره.

نفقاً من طينٍ وحجارةٍ ورملٍ شديد الظلمة، أمسكنا بأيدي بعضنا البعض ونحن نمشي فيه، كان طويلاً للغاية.

أجزاءً منه كانت مضاءةً وأجزاء أخرى كانت أحلك من سواد الليل، حتى لو أغمضنا أعيننا أو فتحناها سواء ، لم نكن نبصر.

أخذنا نصلي لله وندعو.

وهنا تذكرت قصة قديمة لفتى ضاع عن منزله فأخذ يقول في سره ... يا هادي يا دليل ... ومنذ تلك اللحظة لم أعد أتكلم وبات قلبي ولساني

وجوارحي لا تردد سوى هذه الكلمات .. يا هادي يا دليل.

ارتطمت رؤوسنا ... واستمرينا في المشي .. وخرجنا من النفق سالمين والحمد لله.

قارب النهار على نهايته واقترب أذان المغرب، كنا قد قطعنا النفق ومن ثمّ أرض واسعة خضراء يتخللها نهر فوقه جسر من خشب .. مشينا عليه واهتز من تحت أقدامنا .. إلى أن تزعزع وانكسر لتقع والدتي وتعلق قدمها .. كل ممّا أمسك بيدها من طرف ورفعناها .. لكنها أصيبت اصابة بالغة في قدمها، جعلتها تنزف دمّاً كثيراً ، اضطررت لقص قطعة من ثيابي من الأسفل ولففتُ بها قدمها.

امتلائنا غباراً وقذارة، لنصل لمنطقة مدمرة مهدمة، البيوت فيها تعانق بعضها البعض، والأوساخ والقمامة تحملها الرياح لتنتقلها من مكانٍ لآخر.

لوحات مكسورة ترتطم ببعضها ، صفير الريح في كل مكان، منطقة موحشة بكل ما للكلمة من معنى.

تعبنا وأخذ التعب مَنّا كل مأخذ، فأجسامنا باتت هزيلة وجوعى ودامية ومصابة.

وكما يقولون ارحموا عزيز قومٍ ذل، ولكن أين للرحمة من قلوبهم.

نسير خلف بعضنا البعض، نبكي ونتاجوه ونتاجوى، ومن ثمّ نتوقف لنرتاح قليلاً ، ثمّ نعاود من جديد .

إلى أن وصلنا لبناء محطم، يعتبر مرمى للقمامة والرمال والحجارة المتكدسة.

بناءً كان شاهقاً ولكنه الآن أصبح طابقاً واحداً فقط، أصبح منزلاً عربياً مشوهاً متخلخلاً.

أمرنا بالجلوس فيه، لكن أين نجلس ، حدثنا أنفسنا: هل أصبحت أرضنا هي قمامتكم وأوساخكم .. أوفٍ لكم.

كانت الرائحة كريهة وقاتلة، لكننا انصعنا وجلسنا، ليس الخوف فقط هو ما دفعنا لمسايرتهم وإنما التعب أيضاً، جلسنا على حجارة ورمال وشظايا وطلقات رصاص مرمية، اتخذناها أرضاً لنا فهي أشرف من قمامتهم.

جاء أحدهم ليسمعنا أوامرهم مجدداً، سنتقلون على دفعات وستحملون في شاحنات، سنوصلكم لمنطقة آمنة.

كان جرح والدتي قد اشتد، ونزيفها نفاقم، وأصابتها الحمى جراء إصابتها ولم تعد تستطيع السير، وهذا جعلنا نبقى في المؤخرة، كنا نراهم يشكلون مجموعات ويركبون سيارات تم إحضارها لنقلنا، لم تكن سيارات فعلياً بل شاحنات ينقل بها الدواب، هذا ما كنا نمثله بالنسبة لهم، مجموعة من الدواب لا أكثر، كانت مليئة بمخلفات الأبقار والأغنام.

كنتُ أمسح وجه والدتي لأخفف من حرارتها، وسارة تصرخ بهم تطلب منهم إحضار الطبيب، وربما انفعالها زاد من جمالها حيثُ لمعت عيون من تحدثهم وأرادوا منها ما هو أكثر من الاستماع لها، لقد رأيتهم يجتمعون حولها بعد أن بقينا لوحدها ليس معنا أحد، أخذت تصرخ وتصرخ ... تركتُ والدتي وأسرعت لنجدتها ممسكةً ببعض الحجارة والرصاص والعصي التي وجدتها على الأرض، ألقيتها عليهم وأنا ألعنهم وأشتمهم، وأحاول ضربهم بما تبقى لي من قوة، واستطعتُ إمساك يدي أختي سارة للمرة الأخيرة، رغم كل ما حدث فأنت أختي ولن أدعك، كانت دموعنا وعيوننا تعبر عن أسفنا لحياةٍ لم نعشها ولماضٍ لم نجد فيه الراحة والسكينة، لكن ما باليد حيلة، لم أستطع منعهم، فقد تلقيتُ ضرباً بالأيدي والأرجل ضرباً بالبندقية وآخر بالقدم، كنتُ كالحشرة يدهسونها ما بين أقدامهم ولم أعد أسمع شيء إلا صوت سارة بأذني: أمينة ... ساعديني ... أرجوك.

بكيثُ وبكيت حتى أغمي عليّ، وصورة سارة تبتعد وهي تصرخ وتمدُّ لي يدها، وصورة والدتي المحمومة وهي تأنُ وتتألم كانت آخر ما رآته عيني.

وحين فتحتُ عينيَّ رأيتُ نفسي في إحدى تلك الشاحنات الكريهة التي كان الآخرون يركبون بها، التفتُ فوجدت بجانبني والدتي مرميةً كأبي غرض، يدها تحت جسدها وقدمها تكاد تلامس رقبتها، كانت تتأوه، اقتربْتُ منها وحاولت تعديل جلستها، ثم قصصْتُ قطعة أخرى من ملابسني لأمسح وجهها الملوث بمخلفات هذه الشاحنة، ففتحت عيناها لتراني وحاولت جاهدةً لتقول لي شيئاً ما.

وكم تمنيتُ لو أنَّها لم تقل شيئاً، كانت صدمة بالنسبة لي، فاعترافات والدتي لي كانت آخر ما كنتُ أتوقع سماعه، وبعد أن انتهت طلبت مني السماح ... ومن ثم.....

لقد رحلت والدتي وتركتني وحيدة غريبة ضعيفة، أه يا أمي ... أه يا أمي . لو قدر لي أن أعطيك عمري لما ترددتُ للحظة واحدة، ومهما فعلتِ تبقيين أمي التي أحببت.

كنتُ ممسكةً بها واضعةً رأسي على حضنها، حينما توقفت الشاحنة، وفتح بابها الخلفي، فوجدوني أبكي جثةً والدتي المشوهة والملوثة، سحبوني من بين ضلوعها وجروني على الأرض كأبي حيوانٍ يُساق على المسلخ، وأنا أصرخ وأنادي : أمي.

ثم رموني في مكانٍ غريب، كان أشبه ما يكون بالمدرسة، كنتُ محطمة ومدمرة ومنهكة، فضلوعي مكسرة ووجهي مضرَّجٌ بالدماء، التف الناس من حولي، إنهم أصدقاء رحلتنا ورفاق ذلنا وانكسارنا، شعرتُ معهم ببعض الأمان، فبكيت وصرخت واختلطت دموعي بدموعهم وأمي بالأمهم وحرزني بأحزانهم، فمن منهم لم يفقد قريباً أو عزيز.

فما الذي يشعر به الغريق وسط الأمواج .. أم ما الذي يشعر به من أخبر
أن الموت سيلازمه ولو بعد شهر أو أكثر، خسرنا أهدافنا، وأحلامنا،
وتطلعاتنا، خسرنا أحبائنا وعائلاتنا، خسرنا أطفالنا وأمهاتنا، خسرنا
كرامتنا.

جمعنا معا في باحة المدرسة ، وبدأت عمليات التحقيق مع كل فردٍ منّا،
وكأننا في معتقل.

جلسنا في الباحة، الظلام مخيف، فلم تكن هناك إضاءة خوفاً من أن يتم
رؤيتنا من طائرات استطلاعية تحلق فوقنا.

وبعد فترة من الزمن وزع علينا بعض الخبز اليابس لنأكله، وقالوا لنا وهم
يعطوننا إياه: سدوا بطونكم بها، هذا أكثر ما تستحقون.

كانت الأمهات تبلل قطعة الخبز بفمها قبل أن تعطيه لأبنائها، وربما ترطبه
بدموعها ودموع أبنائها.

لم ندم طيلة تلك الليلة الحزينة من بكاء وخوف وفزع وألم وتعب.

كنا ندعو الله أن يكون كابوساً جماعياً، وأن نصحو لنجد أنفسنا في منازلنا
وبين أفراد عائلتنا سليمين وبصحة تامة.

كم أفتقد فنجان قهوتي صباحاً .. ضوء الشمس وهو يتسرب رويداً عبر

نافذتي ليداعب وجهي . افتقدت مخدتي وأريكتي وإن كانت صغيرة علي
كم شعرت حينها بوسعها .

وأفتقد غرفتي، منزلي، أصوات العصافير تغرد وتدعي وتذكر الله سبحانه
صباحاً.

أفتقدُ رائحة الطعام تفوح من مطبخي، أفتقدُ تنظيف منزلي ومسحه وترتيبه، أفتقدُ حتى مشاكلي مع أختي.

أفتقدُ ساعة الفطور وموعد الغداء والعشاء.

أفتقدُ صوت الأذان صباحاً وظهراً وعصراً ومغرباً وعشاءً. أفتقدُ مياه منزلي، ضوءه . غرفه .

أفتقدُ صوت الجيران وهم يرمون بالحجارة على منزلنا. أفتقدُ صوت رنين هاتفنا الأرضي.

أفتقدُ دراستي أفتقدُ عملي.

أفتقدُ صديقتي وزملائي، بقينا مستيقظين حتى أذان الصبح، هنا بدأت تتعالى الأصوات ... خرج أحدهم وأخذ يلقي علينا قائمة بمجموعة من الأسماء وبعد انتهائه. قال أنّ الأسماء التي ذكرها سيتم نقلها بنقلٍ خاص لمنطقة ما.

خرجت المجموعة الأولى تُفتش ويُذاع اسمها عبر باب المدرسة لتقرر أين ستذهب.

تلتها مجموعة ثانية فتالته فأخرى، إلى أن اتسعت الباحة، باحة المدرسة علينا ... ولم يبقى سوى قلة قليلة ضعيفة منكسرة، وكنتُ من بينها.

أشرفت الشمس ... ونحننا نناجي المولى أن يأتي دورنا ونخرج من هنا وننسى الألم والغدر.

جاء الصوت حاملاً ورقة وبدأ يذكر الأسماء بتتابع لا يعلمه سواه، وذكر اسمي من بينها ... علت الدهشة والفرحة وجوهنا والعبرات عرفت طريقها لعيوننا ... وقلنا: يا رب

كنا في رحلتنا الجديدة .. مهدودين متعبين لا نسمع لنا صوتاً أو همساً أحنينا رؤوسنا حزناً وألماً وخوفاً وتعباً.
حتى الأطفال لم تعد تسمع لهم صوت.

هل فقدنا طعم الحياة؟ إذا كان ذلك فهذا يعني أننا قد ذقنا طعمها قبلاً، وإن كنا قد عشنا فقراً وضيقاً.

جالسين بقرب بعضنا البعض منصتين لصوت السكون ... وهل للسكون صوت.

لا تسمع إلا صوت هدير المحرك ... الى أين هذه المرة .. أين سيأخذوننا.
كان يوماً مشمساً بشكل غير اعتيادي ... شمس قوية تحرق الوجوه ...
رغم ساعات النهار الأولى .. هواء ورياح تصفر تنذر بالسوء وباقتراب الألم .. تدعونا للهرب والنجاة ... حدثتها قائلة: أين تريدين منّا أن نهرب؟
والى أين؟

لم نلبث وقتاً طويلاً حتى توقفت السيارة ... قادونا ببندقياتهم لمكان آخر لا أعلم ما هو .. أهو منزل لأحدهم .. أم هل هو ملجأ .. لا أحد يعلم .. دخلنا .. وطلب منا الانتظار ... انتظروا ربما موتكم أو طريقة موتكم .

انتظرنا حتى ملّ الانتظار منّا ولا نعلم إلى متى ولا أين نحن ولا ماذا ينتظرنا؟؟؟.

نراقب بعضنا بعضاً متوجسين مترقبين ... أفكارُ تفتلنا وترعبنا وأخرى
تزيدنا صموداً وقوة .

جاءوا من وراءنا، كان معهم امرأة قاسية الملامح متجهمة الوجه يقطر من
وجهها الشر والحقد، فاقتهم حقداً وتعصبا ... دخلت غرفة وأمرنا نحن
النساء أن ندخل واحدة تلوى الأخرى للتفتيش، أخذنا حاجياتنا ودخلنا .

أخذت هذه المرأة تفتش وترمي كل شيء وكأنها تبحث عن مال يخصها
فقدته بين ملابسنا أو أساور من ذهب سرقت منها ودست بين أشياءنا. كأنها
هي الضحية ونحن الظالمين القتلة...

أخذت كل شيء ذو قيمة وقعت عيناها عليه .. لم تفتشنا بغية التأكد من

أننا لا نحمل سلاحاً أو ما شابه .. بل فُتشنا لتسرق منا آخر ما نملك،

آخر ما استطعنا حمله من منازلنا، آخر ذكرياتنا، سرقت منا أجهزة
المحمول ... الصيغة والأساور ... المال ... والدواء ... وأجهزة اللابتوب
... وكل شيء...

حاولت جهدي حينما جاء دوري أن أخفي اللابتوب الخاص بي ضمن
أشياءي فلا تراها ونجحت ، لكنني حينما خرجت أتاني أحدهم يصرخ
ويقول أريني ما تخفين، وضع سلاحه فوق رأسي على جبيني وقال لي:
أقتلك أم تعطيني إياه؟؟؟

ثم أمرنا بالسير واجتمعنا مع مجموعات قد سبقتنا ... سرنا مشكلين جداراً
من بشر ... رؤوس محنية تحت الخطأ، لتبقى مع الجماعة.

مررنا بأناس وأطفال ونساء يعيشون حياة طبيعية ينظرون لنا مستغربين
وعيونهم ترانا متسولين.

لو كان للقلوب السنة لتحدثت وأجهشت بالبكاء، لكانت قالت لهم: لسنا
متسولين ولا حثالة، لكن جار علينا الزمن وجار علينا أهلكم وأولادكم.
لكانت سألتهم: هل أنتم سعداء بما فعل أبنائكم بنا؟
ثم أمرنا بالتوقف، وبعدها طلب منا أن نسرع وألا ننظر إلى الخلف.

ركضنا لا نعرف لماذا؟ ولا نعرف إلى أين؟ .. ولا نعرف من ماذا
نخاف؟.. ولا لما نركض؟.. لكننا أسرعنا بكل قوتنا الباقية لنا متأملين أننا
حقا قد نجونا .. وأنّ الحياة ما زالت أمامنا .

لم ننظر للخلف ليس استجابة لأوامرهم، بل إنما لننسى ما عشناه وكأته حلم
بل كابوس سنستيقظ منه قريبا.

سمعنا اطلاق الرصاص علينا .. أسرعنا أكثر وأمسكنا ببعضنا البعض
وناجينا المولى ألا تصيبنا إحداها.

ازداد اطلاق الرصاص و زاد معه خوفنا وصراخنا .. إلى أن وصلنا
لمنطقة سكنية ... يخرج أبناؤها من المدرسة منصرفين عائدين لبيوتهم ...
اقتربنا

وتوقف اطلاق الرصاص .. أردنا قطع الشريط الذي يفصلنا عن هؤلاء
الأطفال السعداء بانصرافهم وعودتهم ليجدوا طعاما لذيذاً وأماناً وسكينة،
لكن....

لم يسمح لنا بتجاوز هذا الشريط .. وطلب منا الانتظار، وجمعنا كأننا قطيع من الغنم تركت في صحراء لترعى.

جمعنا حشوداً في منطقة لا ظل فيها ولا شجر.. لا عشب فيها ولا زهر .. لا بيت فيها ولا سكن .. لا ناس فيها ولا نفس..

قيل لنا لا يمكنكم الدخول حتى يتم التحقق من هوياتكم وبطاقاتكم الشخصية.

حدثت نفسي: لماذا؟؟؟ هل منظرنا يوحي بعصاة؟؟.. هل أطفالنا الجياع يوحون بالعداوة؟؟.. هل وجوهنا المغيرة المكفهرة توحى بالخبث والدهاء؟؟.

كنا نتوسل إليهم قائلين لهم: أرجوكم هدنا التعب والجوع والذل .. كفانا ذلاً .. كان أهون علينا أن نذلّ من أناس حسبناهم ليسوا منا .. ولكن أن نذلّ ممن نعدّهم من أهلنا .. فهذا شيء لا يطاق له صبراً.

صبرك يا الله ما باليدي حيلة.

جلسنا على الرمل الحارق .. والشمس تحرق وجوهنا وأيدينا .. ووضعنا المناشف التي أخذناها من ملجأنا الأول من معمل المناشف في بداية رحلتنا هذه كتعبير عن السلام .. وضعناها فوق رؤوسنا ورؤوس أطفالنا ونسائنا وكبارنا وشيوخنا .. رجوناهم ببضع قطرات من الماء استجابوا لطلبنا وأمدونا بماء شبه كافي .. شربنا قليلاً وارتوينا قليلاً.

وضعوا لنا ما يشبه الخيمة لنلبي فيها نداء الطبيعة ، ولتكون حمام لنا .

تم تحويلنا لمعتقل بعيد حقق معنا ما يقارب عشرة أيام أو أكثر، ثم تمّ

الإفراج عنّا ونلنا براءتنا على عملٍ لم يكن لنا فيه خبزٌ أو فطير.

٢٠٢٤/١٠/٢٠

عدتُ لمنزلي، فلم أعرفه، فسطحه كان مداساً لقدمي.

فقد استوت جميع البيوت على الأرض، وأصبحت كالرماد وكأثها لم تكن يوماً شامخة.

وقفتُ على منزلي والدموع تنهمر على خدي، أستذكر صورة والدي المريض، والدتي وهي تموت، سارة وهي تمسك بيدي وتصرخ، سامي وهو يغادر المطار مطأطئ الرأس، جوري وهي تمسك بثوبي لا تريد فراقي، أمنية التي لم أرها إلى الآن.

أستذكر حديث أمي وطلبها السماح مني.

أنا الآن لا شيء، ولا أعرف من أنا، وما هو اسمي.

تمت بعون الله

